مؤثرات ربانية
في
تزكية النفس

د/علي بن محمد المطري

حفظه الله ورعاه وغفر له ولوالديه وجميع المسلمين

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أما بعد:

التزكية

التزكية مقصد من مقاصد بعثة الرسل عموما، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم" انتهى.

وهي غاية من غايات بعثة النبي ﷺ على وجه الخصوص كما قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)، فهو يزكيهم بمعنى: يدلهم على ما تزكو به نفوسهم، وليس هو فاعل التزكية فيهم، (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ).

وقد حاز النبي ﷺ على التزكية الربانية في إيمانه وعبادته وخلقه، فأرسله الله لتزكية هذه الأمة، وتطهير النفوس من دسائسها وأمراضها، وملئها بكل خصال الطهر والنقاء، وقد كان ذلك في أصحابه رضوان الله عليهم، الذين تحقق فيهم هذا المقصد العظيم بأبهى صوره، حيث عمل فيهم النبي ﷺ على مسارات التزكية الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، فكانوا صفوة لا تتكرر، وبقيت الأمة تتوارث منهجهم في التزكية، وعلى قدر قرب الأمة وبعدها من هذه القدوات يكون موقعهم من هذا المقصد العظيم (التزكية).

ومفهوم التزكية كما يرى ابن تيميه في الفتاوى: (تكون بعمل الصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير).

ويمكن القول بأن تزكية النفس: عبارة عن تخلية النفس من العيوب والرذائل والآفات الظاهرة والباطنة، وتحليتها بالفضائل، والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضى الله عز وجل، وتحقيق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا، والفلاح والنجاة في الآخرة.

وإذا كانت التزكية أحد مقاصد بعثة النبي ﷺ، فإننا سنجد ذلك مبثوثا في صفحات السنة النبوية، وهذه بعض الإشارات التي تبرز هذا المقصد لا على جهة الاستيعاب:

مقصد التزكية في الدعاء النبوي:

مطلب التزكية ظاهر في دعائه المأثور، فكان من دعائه ﷺ كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم

آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

ومن الأدعية التي يبرز فيها مقصد تزكية النفس حديث عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: ((يا حصين، كم تعبد اليوم إلها؟ قال: سبعة: ستة في الأرض، وواحدا في السماء، قال: فأيهم تعد لرهبتك ورغبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: يا حصين، أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك))، قال: فلما أسلم حصين، جاء فقال: يا رسول الله، علمني الكلمتين اللتين وعدتني، قال: ((قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي))؛ أخرجه الترمذي.

التخلية قبل التحلية:

من قواعد التزكية المشهورة التي تجلت في النصوص النبوية قاعدة: (التخلية قبل التحلية)، بمعنى: تخلية النفوس من العيوب والآفات، ومن ثم تحليتها بالفضائل، والخصال الحسنة، وقد عمل النبي ﷺ على تخليص أصحابه من أدران الجاهلية، وهذا يعتبر الركن الأول من أركان التزكية، ويدل على ذلك على سبيل المثال:

حديث المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها. فسألته عن ذلك؟ فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله – ﷺ – فعيره بأمه، فأتى الرجل النبي – ﷺ – فذكر ذلك له. فقال النبي – ﷺ –: (إنك امرؤ فيك جاهلية).

والمعنى: قد بقي فيك من اخلاق القوم شيء. كما قال ابن هبيرة في الإفصاح، وقد وصل أبو ذر إلى هذا المقام من التخلي عن كل أمر يمكن أن يوصف بأنه جاهلية، حتى أنه ألبس غلامه حلة كحلته، وهذا يدلنا على الأثر البالغ الذي تركته عبارة التزكية في نفسه، حين قال له النبي ﷺ: (إنك امرؤ فيك جاهلية).

ومن التخلية: النهي عن الغضب، فهو بوابة للشرور، ومفتاح للظلم والعدوان، كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: لا تغضب فردد مرارا، قال: لا تغضب.

ومن التخلية: نزع حب الفواحش، وما اعتادوا عليه من مقارفة الآثام من نفوسهم، كما في مسند أحمد بإسناد صحيح، عن عن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: " ادنه، فدنا منه قريبا "، قال: فجلس قال: " أتحبه لأمك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم "، قال: " أفتحبه لابنتك؟ " قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: " ولا الناس يحبونه لبناتهم "، قال: " أفتحبه لأختك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لأخواتهم "، قال: " أفتحبه لعمتك؟ " قال: لا والله جعلني الله

فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لعماتهم"، قال: " أفتحبه لخالتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لخالاتهم "، قال: فوضع يده عليه وقال: " اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه " قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

فهذا وغيره مما يعزز الركن الأول من التزكية، وهو التخلية من الآفات والأمراض والخبائث، وتطهير النفس من العيوب والآفات المدنسة، وهذا في السنة مما لا يقع تحت الحصر، ومن أبرز ما ورد في السنة المطهرة تخلية النفس عن: (الشرك، والرياء، وحب الجاه، وحب الدنيا، والهوى، والحسد، والكبر، والشح، والغرور، وحب الرياسة، والحمية للنفس، والغضب، والتسويف، والإسراف، والغيبة، والعلو، والطمع، والهلع، والتقصير)، ولا تخفى النصوص النبوية الواردة في النهي عن هذه الآفات، والحث على تطهير النفس منها، وسبل الهدي النبوي في تخليص الناس منها.

الركن الثاني: التحلية بالفضائل، والسمو بالنفس إلى كل خير وعمل صالح، فيدخل في هذا النصوص النبوية الآمرة بكل خير مما يتصل بالإيمان، والعبادة، والأخلاق، فكل هذا هو سلم التزكية، والوصول بالنفس إلى منازل المخلصين، وملكوت الطائعين.

ومن جوامع هذا الباب: حديث أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة، فاعمل حسنة تمحها رواه الترمذي وغيره وحسنه الألباني، وقول النبي الله ﷺ لأشج عبد القيس: " إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة " رواه مسلم.

وقد بين النبي ﷺ آثار الذنوب على القلوب والنفوس في تدسيتها، وآثار الطاعات والفضائل في تزكيتها، بمثل مضروب يقرب المعنى بألطف عبارة، كما في صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه.

أليات التزكية:

وأما طرق التزكية فإننا نلمح من النصوص النبوية المبثوثة آليات يستعملها المسلم في تزكية نفسه، مثل: مجاهدة النفس، وإصلاحها، ومحاسبتها، والاجتهاد في العبادات، ودوام مراقبة الله، وتذكر الموت، وقصر الأمل، وترك المحرمات، وفعل الواجبات، والمبادرة إلى التوبة، والاستغفار وغيرها

وفي هذا البحث اثر العبادات في تزكية النفس

لعلك أيها القارئ تجد بغيتك إن شاء الله

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ان يوفقنا وإياكم لتزكية نفوسنا

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ العَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا.

وقفة مع النفس

الا يا نفس ويحك ساعديني***بسعي منك في ظلم الليالي

لعلك في القيامة ان تفوزي ***بطيب العيش في تلك العلالي

لابد من جهاد النفس في لزوم الحق والثبات على التوبة؛ لأن النفس تحتاج إلى جهاد، يقول الله عز وجل: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) [العنكبوت:٦] ويقول عز وجل: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت:٦٩] ومعنى قوله: جَاهَدُوا فِينَا أي جاهدوا أنفسهم وجاهدوا الكفار وجاهدوا المنافقين وجاهدوا العصاة وجاهدوا الشيطان، فالآية عامة تشمل أنواع الجهاد، ومن ذلك جهاد النفس؛ لأنه سبحانه حذف المفعول ولم ينص عليه في الآية، حتى تعم جميع أنواع الجهاد، فالنفس تحتاج إلى تربية وعناية وصبر وجهاد، كما يقول الشاعر:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى***فإن أطعمت تاقت وإلا تسلت

ويقول الآخر:

والنفس راغبة إذا رغبتهاوإذا ترد إلى قليل تقنع

وقال الآخر:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على***حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

هذه ثلاثة أبيات جيدة مطابقة لأحوال النفس. فالمؤمن الحازم هو الذي يجاهد نفسه لله حتى تستقيم على الطريق وتقف عند الحدود، وبذلك يهديه الله سبيله القويم، وصراطه المستقيم، ويكون المؤمن بذلك من المحسنين، الذين قال فيهم سبحانه: وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [العنكبوت:٦٩] وقال فيهم عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [النحل:١٢٨]؛ والله ولي التوفيق

أثر التوحيد في تزكية النفوس

إن أساس بناء النفوس على الاستقامة والصلاح هو تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، والله تعالى هو المنعم على عباده بإرشادهم لما فيه تزكية نفوسهم: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (النور: ٢١).

ولذلك كان الأساس الأول لتزكية النفس هو تحقيق توحيد الله تعالى بإفراده بالربوبية والألوهية وإثبات الأسماء الحسنى وصفات الكمال التي لا تنبغي إلا له سبحانه.

ولقد أرسل الله جميع الرسل يدعون إلى التوحيد ويحذرون من الشرك: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: ٣٦).

وفي الحديث: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟". قال: الله ورسوله أعلم، قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا".

قال ابن القيم رحمه الله: (التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى).

ولقد كانت الآيات تتنزل في مكة لتثبيت عقيدة التوحيد في نفوس الموحدين وترد على المعاندين والمعرضين الذين أصروا على الشرك ومعاداة دعوة التوحيد.

كما أن القرآن قد أقام الحجة على هؤلاء المشركين بوجوب إفراده بالعبادة والطاعة بما أقروا به من كونه سبحانه هو وحده الخالق لهذا الكون وما فيه. وأظهر القرآن عجز هذه الآلهة المزعومة، وبين أنها لا تملك نفعا ولا ضرا. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)} (البقرة).

وقال عز وجل في بيان استحقاقه وحده العبادة وبطلان عبادة ما سواه: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)} (النحل).

كما ركزت آيات الكتاب الكريم على إيقاظ الفطرة التي فطر الله الناس عليها وذلك لتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (يونس:١٢).

وقال الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} (الزمر:٨).

وهذه حقيقة يقررها القرآن أن بعض بني الإنسان في حال الرخاء قد ينسى خالقه، لكنه عند الشدائد ووقوع الضر به لا يجد أمامه إلا الله تعالى ملجأ، لأن هذه هي الفطرة، أما الشرك والإلحاد فهو غش وخداع ينكشف عند أول شدة تحيط بالإنسان.

ولا شك أن المؤمن الموحد الذي تيقظت فطرته يحيا حياة كريمة ويشعر أن لوجوده قيمة وغاية وأن له في هذه الدنيا رسالة، فيقوم بما أوجب الله تعالى عليه وينتهي عما نهى الله عنه فينعم بالراحة وسكينة النفس وطمأنينة القلب، بخلاف المشرك أو الملحد الذي تراه عديم الثقة بالحياة دائم الاضطراب والقلق لا يجد لحياته غاية وليس له في هذه الدنيا رسالة.

ولقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تبين آثار التوحيد في تحقيق طمأنينة النفس وتزكيتها، وتأثير الشرك في اضطرابها وقلقها، ومن ذلك:

قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)} (سورة إبراهيم).

فقد بينت الآيات أثر التوحيد في النفس وكأنه شجرة طيبة ثابتة لا تعصف بها الرياح ولا تقتلعها الأعاصير، وهي مثمرة على مر الأيام لا ينقطع ثمرها.

أما كلمة الشرك فهي كالشجرة الخبيثة التي لا أصل لها ولا ثبات، وهذا هو حال الشرك في اضطرابه وقلقه وعدم رسوخه.

إن الآيات لتبين لنا بجلاء أن الشرك مقطوع الصلة بالفطرة السليمة التي خلق الله عباده عليها.

ويقول الله تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} (الأنعام:١٢٥).

فيبين الله تعالى كيف شرح صدر المؤمن الذي استقامت فطرته ولم تتلوث ولم تحد عن التوحيد، شرح صدره للإسلام وتولاه سبحانه بالتأييد والتوفيق للخير.

أما من حاد عن الفطرة السوية التي فطر الله عباده عليها فأعرض عن الإيمان وسلك طريق الغواية والضلال فإن الله تعالى يزيده ضلالا ويجعل صدره ضيقا.

ونفس المؤمن الموحد تنعم بالراحة والاستقرار ويتوجه بكل طاقته وجوارحه إلى سيده ومولاه ومالكه ومدبر أمره الذي له ما في السماوات وما في الأرض وهو على كل شيء قدير، فينعم باليقين ويمشي على الأرض وقد اتضح له الطريق.

أما المشرك فتتنازعه الأهواء فيظل معذب القلب لا يعرف للراحة معنى، ولا للسعادة طريقا، وصدق الله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر: ٢٩).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه.

ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين.

فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه.

فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه ولا تتم عبوديته إلا بهذين...ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله).

ويقول ابن القيم رحمه الله: (فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ – فِي دُنْيَاهُ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النَّحلِ: ٩٧) .

فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} (النَّحْلِ: ٣٠).

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} (هُودٍ: ٣).

وقال رحمه الله: (يتحقَّق للعبد مقامُ {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} علمًا وحالًا، فتثبت قدم العبد في توحيد الرُّبوبيَّة، ثمَّ يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهيَّة، فإنه إذا تيقَّن أن الضرَّ والنَّفع، والعطاء والمنع، والهدى والضّلال، والسَّعادة والشَّقاوة كلُّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنّه الذي يقلِّب القلوب ويصرِّفها كيف يشاء، وأنَّه لا موفَّق إلّا من وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلَّا من خذله وتخلَّى عنه، اتَّخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، وأخوف عنده من كلِّ ما سواه، وأرجى له من كلِّ ما سواه، فتتقدّم محبَّتُه في قلبه جميع المحابِّ، فتنساق المحابُّ تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسُّلطان، ويتقدَّم خوفُه

في قلبه جميع المخاوف، فتنساق المخاوف كلُّها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميع الرّجاء، فينساق كلُّ رجاءٍ له تبعًا لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهيَّة، والبابُ الذي دخل إليه منه: توحيد الرُّبوبيَّة، كما يدعو سبحانه عبادَه في كتابه بهذا النَّوع من التَّوحيد إلى النَّوع الآخر، ويحتجُّ عليهم به، ويقرِّرهم به، ثمّ يخبر أنَّهم يَنقضونه بشِرْكهم به في الإلهيَّة.

وفي هذا المشهد يتحقَّق له مقام {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [الزخرف: ٨٧] أي: فمِن أين يُصرَفون).

وبتحقيق التوحيد يحيا المؤمن في هذه الدنيا حياة الأمن والسكينة والطمأنينة، مع ما يرجوه في الآخرة من الثواب الحسن والنعيم المقيم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} (الأنعام: ٨٢).

والخلاصة

لقد خلق الله تعالى النفس البشرية وجعل لها سبلاً تزكو بها حتى تصل إلى مراتب الفوز والفلاح، ومن وسائل تزكية النفوس توحيد الله تعالى، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ والاعتصام بهما، وتحقيق معاني أسماء الله الحسنى، والابتعاد عن كل ما يغضب الله سبحانه، واستشعار رقابة الله عز وجل، والخوف منه سبحانه وتعالى.

أثر العبادات في تهذيب النفوس

من محاسن الإسلام العظيمة أنه دين شامل لكل نواحي الحياة، فلا انفصال فيه بين العبادة والسلوك، ولا بين العلم والعمل.

ومما لا شك فيه أن من أعظم غايات العبادات التي شرعها الإسلام ـ وجوبا أو استحبابا ـ هو تزكية النفوس وتهذيبها والترقي بها نحو محاسن الأخلاق ومكارمها بحيث يصير المسلم المقيم لفرائض الله تعالى من أحسن الناس أخلاقا وأنبلهم سلوكا وأكرمهم شيما. وهذه الغاية نلمسها في كل شعيرة من شعائر الإسلام وكل ركن من أركانه.

فالصلاة التي هي أهم الأركان في الإسلام بعد توحيد الله تعالى نجد أنها من أعظم وسائل تزكية النفوس، كما قال الله تعالى: (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

ولهذا لما قيل للرسول ﷺ: إن فلانا يصلي الليل كله فإذا أصبح سرق. قال: " سينهاه ما تقول" أو قال: "ستمنعه صلاته". (رواه أحمد وغيره بسند صححه الألباني رحمه الله)

فكأن حقيقة الصلاة أنها تزكية للنفس وتطهير لها من الأخلاق الرديئة والصفات السيئة.

والصيام من غاياته العظمى تحقيق التقوى كما قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون). ولا تتم التقوى عند العبد إلا إذا حسن خلقه مع خلق الله تعالى، ولهذا جمع النبي ﷺ بين الوصية بالتقوى والوصية بحسن الخلق حين قال: " اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن " .وذلك لأن بعض الناس يظن انه بإحسانه عبادة الله يمكنه ان يتخلى عن المعاملة الكريمة الحسنة مع الخلق فوجههم النبي ﷺ إلى ضرورة الجمع بين تقوى الله وحسن الخلق.

كما وجه النبي ﷺ الصائم إلى ضرورة التحلي بالحلم وحسن الخلق حين قال مخاطبا الصائمين:" فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم...." الحديث.

والزكاة كذلك هي عبادة وفريضة وهي أيضا وسيلة من أعظم وسائل تطهير النفس من البخل والشح والأنانية، وزرع معاني الفضيلة والألفة والرحمة والشفقة، ولهذا قال الله عز وجل: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).

أما الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام فإننا نرى له أثرا عجيبا في إصلاح الأخلاق وتهذيب السلوك كيف لا والله عز وجل يقول: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج)

وحين يفسر النبي ﷺ برّ الحج بأنه" لين الكلام وإطعام الطعام" فإننا نجد لذلك أثرا عظيما في سلوك كثير من حجاج بيت الله الحرام حين يحرصون على أن يكون حجهم مبرورا فيلينون بين أيدي إخوانهم، ويتحملون منهم من التصرفات والأفعال والأقوال في الحج ما قد لا يحتملونه في غير الحج حتى إنك ترى الرجل أثناء إحرامه يحرص على تجنب الجدل والمراء، بل لا يرد الإساءة بمثلها وهو نفسه الذي لو أوذيَ أو أُسيء إليه قبل تلبسه بالإحرام لثار وهاج وماج لكنه أثر العبادة على خُلُقه وسلوكه.

ولو أن المسلمين استلهموا هذه الروح واستشعروا هذه الغاية من عباداتهم في كل أحوالهم لتحسنت الأخلاق كثيرا ولنعم المجتمع المسلم بعلاقات ملؤها الحب والمودة والرحمة لكن الواقع المُشاهَد يجعل العبد يوقن بأن بعض الناس ربما استفاد لحظيا أو وقتيا من أثر عبادته لكن الأثر لم تكن له صفة الدوام والاستمرار، وهذا بلا شك خللٌ في التطبيق يحتاج إلى التذكير بأن من أعظم غايات تشريع العبادات في الإسلام تزكية النفوس وتقويمها ونهيها عن غيّها والابتعاد بها عن مساوئ الأخلاق وسفاسف الأمور.

أثر القرآن في تزكية نفس المسلم

أودع الله –تعالى– في كتابه الكريم الكثير من الآيات التي تتحدث عن عظمته –سبحانه وتعالى–، وتفرّده بالخلق والتدبير لهذا الكون العظيم، وقد بيّن الله –تعالى– في كتابه الكريم بعضاً من أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وأوضح للناس الطريق الصحيح الذي يوصلهم إلى النجاح في الدنيا والآخرة، وفيه ذكر لأهم المواقف والأحداث التي مرَّت بالأمم والأقوام السابقين؛ لما في ذلك من عبرة وعظة للناس من بعدهم، وقد دعا الله –تعالى– عباده المسلمين إلى قراءة كتابه بتأمّل وتدبّر، يقول الله –تعالى–:

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

؛ فالقرآن الكريم هو مصباح النور، ومشكاة الهداية للناس أجمعين، يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، وجميل الصفات والعادات، ويحثّ على التحلي بها، والابتعاد عن سيّئها، وقد تضمّن في كثير من سوره؛ كسورة النور، والحجرات، والإسراء على الحِكم، والأخلاق، والوصايا الجامعة العظيمة التي لم يحتويها أيّ مؤلّف آخر، والتي تؤدّي بالبشرية جمعاء إلى سبل الخير والسعادة. وقد بيّن الإمام ابن الجوزي –رحمه الله– أنّ

التمسك بكتاب الله -تعالى-، وسنة نبيّه محمد -ﷺ- يكون بالوقوف على ألفاظ القرآن الكريم، والسنّة النبويّة، وفهم المراد منهما، ثم العمل بما فيهما من أحكام، واتّباع ما يصلح النفس الإنسانيّة، ويطهّرها من الدنس ويزكّيها، ويسمو بها إلى مكارم الأخلاق؛ وذلك لما في القرآن والسنّة من أثر بالغ في إصلاح القلوب والنفوس، وقد كان النبي -ﷺ- أكثر الناس تأثّراً بالقرآن الكريم، وأكثرهم امتثالاً بهديه القويم، وقد سُئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خلق رسول الله -ﷺ- فقالت: (كان خُلُقُه القُرآنَ)، أي أنّ النبي -ﷺ- كان ممتثلاً لما أمره الله -تعالى- به في القرآن الكريم، أمّا السلف الصالح فقد دلّهم الفهم الصحيح للقرآن الكريم على أهميّة إصلاح الباطن، وتنقيته من الآفات التي تصيب النفس، وتبعدها عن طريق الله -تعالى-. وقد حوى القرآن الكريم على جملة من الأحكام، والآداب التي تقوّم سلوك النفس، وتنهاها عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، وتُنذر الإنسان من اقتراف ما يغضب الله -تعالى- ويجلب سخطه، وقد تنوّع أسلوب القرآن الكريم في تزكية النفس الإنسانيّة بين الترغيب والترهيب؛ فيدعو النفس ويرغّبها في فعل الخيرات، وامتثال المكرمات، وينهاها عن فعل المنكرات وسيّء الأخلاق والعادات، ويُبيّن لها عاقبة السوء، وفي القرآن الكريم من الأدلّة والبراهين ما يخلّص النفس من آفات الشكّ والحيرة، ويسمو بها إلى أعلى درجات اليقين بالله -تعالى-؛ فيخرج النفس من ظلمات الشرك إلى نور الهداية، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن سيّء الأخلاق إلى محاسن الأخلاق وكريمها، ويُرشد النفس إلى طريق العلم الصحيح، ويحثّها على العمل به؛ حتى تنال بذلك الخير، والنجاح في الدنيا والآخرة؛ فيسعى القرآن الكريم في جميع آياته إلى تزكية النفس الإنسانيّة، وتهذيب طباعها، وتربيتها وفق منهج أخلاقي متكامل.

أثر القرآن على سلوك المسلم

للقرآن الكريم أثر عظيم في تزكية نفس المسلم، واستقامتها على أمر الله -تعالى-، والالتزام بهدي النبي -ﷺ-، وقد جعل الله -تعالى- تزكية النفس وتقويم سلوكها من أهم الأعمال الموكّلة إلى الأنبياء -عليهم السلام-، ويحرص المسلم على دراسة حياة النبي- ﷺ، وتتبع أحواله، وسلوكه القويم مع الناس؛ ليمتثل ذلك في حياته، ليُقوّم سلوكه، وفيما يأتي عرض لأهم آثار القرآن الكريم الإيجابية على سلوك المسلم:

التزام المسلم بمنهج القرآن الكريم، وسنّة النبي- ﷺ- في حياته يؤدي به إلى طريق الخيرات، وحلول البركات.

قبول النصيحة من الغير، وإبداؤها له، سواءٌ كان من عامة الناس أو من خاصتهم، فتكون النصيحة لله -تعالى-، ولكتابه الكريم، ولرسوله الأمين -عليه السلام-، ولقادة المسلمين، وعوام الناس.

استقامة المسلم في حياته ظاهراً، وباطناً، والحرص على صلاح سلوكه في السر والعلن، والجمع بين العلم والعمل.

إرشاد المسلم إلى أهمية الكسب الحلال، وكفّ الأذى عن الناس، والابتعاد عن الذنوب والمعاصي، والمداومة على تجديد التوبة، والإحسان عند أداء الحقوق لأصحابها.

الصبر عند حدوث الشدائد، والمحن، والتسليم لقضاء الله -تعالى-، والرضا بما كتبه -سبحانه- من أقدار، والتوكّل عليه في تجاوز المصائب التي تصيب المسلم في حياته الدنيا.

أثر سماع القرآن الكريم

لاستماع القرآن الكريم أثرٌ بالغ في تقريب العبد من ربه -جلّ وعلا-؛ فسماع القرآن الكريم يفرح النفس ويسعدها، ويسمو بها إلى أعلى الدرجات، وهو يُعزّز الإيمان في القلوب، ويهدي إلى طريق الفلاح والنجاح، وفيه كذلك انشراح، وشفاء للصدور، وهداية للنور، وأمر بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر، وانتصار للحقّ، وإزهاقٌ للباطل، وعصمةٌ للمسلم في دينه ودنياه، فالقرآن حياة القلب، وغذاؤه، وفيما يأتي بيان لأهمّ آثار استماع القرآن الكريم على نفس المسلم:

نزول رحمة الله -تعالى- على عباده المستمعين لتلاوة كتابه الكريم، قال -تعالى-: (وَإِذا قُرِئَ القُرآنُ فَاستَمِعوا لَهُ وَأَنصِتوا لَعَلَّكُم تُرحَمونَ).

الحصول على الثواب العظيم من الله -تعالى-، ومضاعفة الحسنات، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: (منِ استمَعَ إلى آيةٍ من كتابِ اللَّهِ كتبت لَهُ حسنةٌ مضاعَفةٌ ومن تلاها كانت لَهُ نورًا يومَ القيامَةِ).

حصول الهداية للإنسان، وبُعده عن الضلالة، والشقاء؛ فاستماع القرآن الكريم من صفات أهل الهداية، يقول الله -تعالى-: (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَـئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ).

سببٌ لحدوث النور في حياة صاحب القرآن في الدنيا والآخرة، وطريق لخروجه من الظلمات، يقول الله -تعالى-: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

رسوخ الإيمان في قلب المسلم، وانشراح صدره لقبول الحقّ، واتّباعه في حياته.

تحقّق الخشية في القلب، وظهور أثرها على الجوارح، قال الله -تعالى-: (إِنَّما المُؤمِنونَ الَّذينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلوبُهُم وَإِذا تُلِيَت عَلَيهِم آياتُهُ زادَتهُم إيمانًا وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلونَ).

بعض المواقف الدالّة على تأثير القرآن على النفس

أكثر الناس تأثّراً بالقرآن الكريم هو النبي -ﷺ-؛ فقد كانت عيناه الشريفتان تذرفان الدموع عند استماعه لآيات القرآن الكريم، وقد طلب النبي -ﷺ- من الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن؛ فبدأ يقرأ من سورة النساء حتى وصل إلى قول الله -تعالى-: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا)، فقال له -عليه السلام- (كُفَّ -أوْ أمْسِكْ)،وكانت عيناه الشريفتان تنهمر بالدموع؛ خشية لله -تعالى-، ويظهر أثر القرآن الكريم كذلك في جميع جوانب حياة النبي -ﷺ-، وأعماله وتصدّقه، فيروي الصحابي الجليل عبدالله بن عباس أن النبي -ﷺ- كان جواداً، كثير العطاء، وكان عطاءه -ﷺ-، وجوده يزداد في رمضان فقال -رضي الله عنه-: (كانَ أجْوَدُ ما يَكونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ).وقد تأثّر الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- بالقرآن الكريم، وكان سبباً في إسلام كثير منهم؛ مثل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي كان يعرف في الجاهلية بالقسوة، والشدة، والتجبر، وقد علم في يومٍ من الأيّام إسلام اخته فدخل عليها وضربها، ثمّ سمع القرآن منها، ولما دخل القرآن إلى مسامعه، ووجد فيه نفساً صافية، وقلباً نقياً، وفطرة سليمة، أشرق نور الإسلام في قلبه؛ فاتّبع الحقّ وأعلن إسلامه عند رسول الله -ﷺ-.

نفع القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب عظيم النفع، رفيع الشأن، محفوظ لا يتغير، أو يتبدل، يهدي الناس إلى طريق الخير والجنان، ويبعدهم عن طريق الشر والنيران، وقد حوى القرآن الكريم سبل السعادة والفلاح في الدين والدنيا، ومن امتثل بما فيه من الأوامر، وابتعد عن فعل ما نهى عنه وحذّر؛ فقد فاز برحمة الله -تعالى- ورضوانه، وقد بيّن الله -تعالى- أنّه أحكم آيات كتابه الكريم، وجعلها متقنةً، لا يأتيها النقص، ولا يمكن لبشر أن ينقضها، قال -سبحانه وتعالى-: (الر كِتابٌ أُحكِمَت آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَدُن حَكيمٍ خَبيرٍ)؛ فالقرآن الكريم كمثل البناء المحكم الذي لا يعتريه أيّ نقص في تركيبه، وقد أحكم الله -تعالى- آيات القرآن الكريم لفظاً ومعنى، وانفرد هو وحده بالإحاطة التامّة لجميع معاني القرآن ومدلولاته، والقرآن هو الكتاب المعجز الذي لم تعرف البشرية كتاباً يماثله، ويناظره في الحسن، والإتقان، والبلاغة.

أثر الإيمان في تزكية النفس

إن الإيمان الصادق هو الضابط والمحرك والموجه للإنسان المسلم نحو تطبيق شرع الله تعالى، فهناك إذن تلازم قوي وكبير جدًّا بين الإيمان والسلوك، فكلما قوي إيمان العبد المسلم، وتمكن من شغاف قلبه، استقام سلوكه للالتزام بشرع الله تعالى بيقين وراحة بال، دون تردد أو تسويف، والعكس صحيح إذا ضعف الإيمان أو انعدم؛ حصل الانحراف والبعد عن منهج الله تعالى؛ فجاءت المصائب، والنكبات، والأحزان، والأمراض الحسية، والمعنوية.

وقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))[١].

وورد أيضًا في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ))[٢].

وبالتأمل والنظر في هذين الحديثين الشريفين المشار إليهما يتبين بكل جلاء ووضوح الارتباط الوثيق بين الإيمان والسلوك؛ وعلى هذا يكون من لازم القول أن نكرر ونؤكد على أهمية الإيمان في حياة المسلم؛ بل هو سفينة النجاة التي بها ينجو المسلم من عقاب ربه، ويسعد في الدنيا والآخرة.

وفي ذلك يقول الشاعر:

ما بال دينك ترضى أن تدنسه *** وثوبك – الدهرَ – مغسول من الدنسِ؟

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها ***إن السفينة لا تجري على اليبسِ

وقال آخر:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان *** ولا دنيا لمن لم يحي دينا

وبعد ذلك أعرج على معنى الإيمان عند أهل السنَّة والجماعة فهو: قول باللسان، وعمل بالجوارح، واعتقاد بالقلب، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

---

(١) البخاري؛ صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٠١٩.

(٢) مسلم؛ صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٠٨.

ويعرف الإيمان بشكل مفصل ودقيق بأنه: "التصديقُ الجازم بوجود الله تعالى، واتصافه بكل صفات الكمال، ونعوت الجلال، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأَوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه[1].

وخلاصة القول؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١]، ويعلق الشوكاني رحمه الله على هذه الآية في تفسيره؛ فيقول: أي: من يصدق، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدَّره الله تعالى عليه؛ يهدي قلبه للصبر والرضا بالقضاء، وقيل: يهدي قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من الله تعالى، فيسلم لقضائه ويسترجع، فيقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقيل: هو إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظُلم غفر، ويظهر أنها هداية عامة؛ أي: يهديه الله تعالى لكل عمل صالح؛ فيه سعادة الدنيا والآخرة[2].

صفات المؤمنين:

ربما يتساءل شخص هل للمؤمنين صفات معينة؟

فأقول: إن الله سبحانه وتعالى قد ذكر جملة من الصفات، جاءت مبثوثة في عدد من الآيات وسور القرآن الكريم، ومن الآيات التي حددت صفات معينة للمؤمنين ما يلي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

لعلماء التفسير – أثابهم الله – كلام واسع حول هذه الآيات الكريمات، والمهم أنها حددت وحصرت خمس صفات للمؤمنين، وهي:

١– إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم.

٢– إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.

٣– على ربهم يتوكلون.

٤– الذين يقيمون الصلاة.

٥– ومما رزقناهم ينفقون.

---

(١) انظر: الأثري؛ الوجيز في عقيدة السلف الصالح، ص ٣٥.
(٢) الشوكاني؛ فتح القدير، ج ٧، ص ٢٣٥.

ثم ختمت الآيات الكريمات بأن أولئك الموصوفين بهذه الصفات الخمس هم المؤمنين حقًا، لهم درجات عند ربهم، ولهم قبل ذلك مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم لا تنغيص فيه ولا تكدير.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ

يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

وقد حددت الآيات الكريمات جملة من صفات المؤمنين وهي:

١- الخشوع في الصلاة.

٢- إعراضهم عن اللغو؛ وهو: كل قول وعمل وفكر لم يكن فيه لله تعالى نصيب.

٣- أداؤهم لفريضة الزكاة الواجبة عليهم.

٤- حفظ فروجهم من كشفها، ومن وطء غير الزوج، أو الجارية المملوكة بوجه شرعي.

٥- مراعاة الأمانات والعهود بمعنى محافظتهم على ما ائتمنوا عليه من قول أو عمل.

٦- المحافظة على الصلوات الخمس بأدائها في أوقاتها المحددة لها؛ فلا يقدمونها ولا يؤخرونها، مع المحافظة على شروطها من طهارة الخبث، وطهارة الحدث، وإتمام ركوعها، وسجودها، واستكمال أكثر سننها، وآدابها.

ويقول الجزائري رحمه الله في تفسيره: فمن اتصف بهذه الصفات الستِّ كَمُل إيمانه، وصدق عليه اسم المؤمن، وكان من المفلحين الوارثين للفردوس الأعلى، جعلنا الله تعالى وجميع المسلمين منهم(١).

وهناك تكامل واضح بين الآيات في سورتي الأنفال والمؤمنون من حيث تركيز جانب كبير من الآيات في سورة الأنفال على أعمال القلوب، وقدم الله تعالى أعمال القلوب؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، كما يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره لآيات سورة الأنفال المشار إليها(٢).

ثم تناولت بقية الآيات في سورتي الأنفال والمؤمنون التركيز الشديد على بعض الأعمال الظاهرة، والصفات المهمة التي يجب أن يتحلى بها المسلم، ويحافظ عليها أشد المحافظة، وهي:

- إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

---

(١) الجزائري؛ أيسر التفاسير، ج ٣، ص ٢٤.

(٢) انظر: السعدي؛ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص

- أداء الزكاة والإنفاق في وجوه الخير والإحسان.
- حفظ العلاقات الزوجية.
- أداء الأمانات الواجبة عليهم.
- الإعراض عن اللغو والإقبال على الخير.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

والحمد لله رب العالمين.

المنافع العائدة على الإنسان للإيمان باللّه

إنّ للإيمان بالله – إذا استقرّ في قلب الإنسان على هذا الوجه الواضح الكامل – فوائد ومنافع عظيمة، تكون للمؤمن، ولا تكون لغير المؤمن، فمن هذه الفوائد:

سعة آفاق النّظر

إنّ أولى خصائص الإيمان بالله تعالى أنّه يوسّع وجهة نظر الإنسان، على قدر سعة مملكة الله غير المحدودة. فإنّ الإنسان مادام لا ينظر إلى الدّنيا إلاّ باعتبار علاقتها بنفسه يكون نظره محدودا ضيّقا، حسب علمه ومطالب نفسه، فهو لا يبحث إلاّ عن قاض لحاجته في هذه الدّوائر الضّيقة، ولا تكون صداقته ولا عداوته ولا محبّته ولا بغضاؤه، ولا يكون تعظيمه ولا تحقيره، إلاّ في نطاق هذه النّظرة الضّيّقة، كأنّ نفسه هي المنظار الّذي ينظر به إلى ما حوله من هذا العالم.

ولكنّه إذا آمن بالله تعالى يخرج نظره عن هذه الدّائرة الضّيّقة، ويسع الكون كلّه، فهو عندئذ إنّما ينظر إليه على اعتبار علاقته بالله، وهناك تقوم علاقة جديدة بينه وبين موجودات هذا العالم، فلا يرى فيه شيئا يستطيع أن يقضي حاجاته، أو يستطيع أن يجلب له نفعا، أو يدفع عنه ضررا، أو يستحقّ منه التّعظيم أو الخوف. وعندئذ لا تكون صداقته ولا محبته ولا خوفه ورجاؤه، إلاّ بلله وحده مالك الأرض والسماوات وما فيهنّ.

وإذن، فإنّ المؤمن بالله لا يكون ضيّق النّظر محدود الفكر أبدا.

الأنفة وعزّة النّفس

ومن هذه الفوائد أنّ الإيمان بالله يرفع الإنسان من حضيض الذّلّ والهوان إلى أرفع منازل الأنفة وعزّة النّفس، فإنّ من لا يعرف ربّه يطأطئ رأسه لكلّ شيء في الدّنيا، إذا رأى فيه شيئا من العظمة، أو القدرة على نفعه أو الإضرار به، فهو لذلك يخافه، ويمدّ يده إليه بالاستعانة والاستنجاد، ولكنّه إذا عرف أنّ الله ربّه علم يقينا أنّ الّذين كان يمدّ إليهم يده، لا يقلّون عنه حاجة إلى ربّهم لقضاء حاجاتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[الأعراف: ١٩٤]، إنّ الذين كان يرجو منهم العون والمساعدة عاجزون عن نصرة أنفسهم، فضلا عن أن ينصروه، ويجلبوا إليه النفع، أو يدفعوا عليه الضّرّ، وأن ليست القوّة والغلبة والعلوّ والسّيادة في الواقع إلاّ لله وحده: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً﴾[البقرة: ١٦٥]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٠٧]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾[يونس: ١٠٧].

فالإنسان عند ما يحصل له هذا العلم، يستغني عن كلّ قوّة من قوى العالم، وعندئذ لا يطأطئ رأسه أمام أحد غير الله، ولا يمدّ يده بالاستعانة والاستنجاد إلاّ لله.

ثالثة هذه الفوائد: إبطال الآمال الكاذبة والعقائد الفاسدة

إنّ من أعظم الفوائد التي ترجع على الإنسان من هذا الإيمان الصّحيح الكامل، أنّه يبطل ما يكون فيه من الأماني الكاذبة والآمال الباطلة. فإن هذه المعرفة بالله هي التي تعرّف الإنسان أنّه لا سبيل إلى النّجاة والفلاح والسّعادة إلاّ بهذا الاعتقاد الصّحيح، والعمل الصّحيح، والّذين هم محرمون من هذه المعرفة أنواع:

ـ فمنهم من يعتقدون أنّ هناك عدّة آلهة يشاركون الله في حكمه، أو يمكن لهم أن يجعلوهم وسطاء وشفعاء لهم عند الله، والله جلّ جلاله يقول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ـ ومنهم من يقول: إنّ لله ابنا قد أمّن لهم النجاة بتقديمه نفسه كفارة لذنوبهم، والله يقول: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ﴾ [الإسراء: ١١١]، ويقول: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

ـ ومنهم من يقول إنّ لهم من الدّالة على الله ما ليس لغيرهم، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. فهذه آمال وأنّها باطلة تورّط بني الإنسان في أوحال الإثم، وتمهّد السّبيل إلى المعاصي والذنوب؛ لأنّهم باتّكالهم عليها يغفلون عن تزكية نفوسهم، وإصلاح أعمالهم. أمّا عقيدة الإيمان بالله على الوجه الصّحيح الّتي يدعو إليها محمد بن عبد الله، فلا مجال معها لمثل هذه المعتقدات المنحرفة والآمال الكاذبة.

يبيّن القرآن والسّنّة أنّه ليست لأيّة أمّة من أمم الأرض دالّة على الله، وإنّ كلّ ما في السّماوات والأرض عباده ومخلوقاته، وهو ربّهم جميعا، وأن ليست الكرامة والفضيلة للإنسان إلاّ على أساس تقواه.

الفائدة الرابعة للإيمان بالله: طمأنينة القلب

فإنّ الإيمان بالله يربّي الإنسان على كيفيّة نفسيّة قائمة على الثقة بالله وحده، والرّجاء لرحمته، ولا تدعه يتغلّب عليه اليأس والقنوط؛ إذ الإيمان كنز لا ينفد من الآمال الصّادقة، لا يزال يزوّد الإنسان برصيد من قوّة القلب، وطمأنينة الرّوح، ويلقي في روعه أنّه لو طرد من كلّ باب من أبواب الدنيا، وتقطعت به الأسباب كلّها، فإنّ الله غير خاذله أبدا؛ لأنّ الله الّذي آمن به من يقول عن نفسه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]، ويقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[الزمر: ٥٣]. وإنّ ذكر الله هو البلسم الذي يجبر جروح القلب، ويملؤها ثقة وطمأنينة ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

الفائدة الخامسة للإيمان بالله: الشجاعة والجرأة

فإنّ الإيمان الصّحيح الكامل بالله تعالى، ينشئ في نفس المؤمن صفة خلقيّة، هي صفة الجرأة والإقدام والبسالة والشجاعة.

إنّ هناك أمرين يجلبان الجبن والهلع إلى قلب الإنسان:

أوّلا: حبّه لنفسه وأولاده وما يمتلكه من أموال.

ثانيا: خوفه من زوال ما به من استقامة حال، وهناء عيش؛ لاعتقاده الباطل بالأشياء التي يستخدمها في نيل أغراضه، هي في ذاتها المجرّدة قادرة على نفعه وضرّه.

فالإيمان بالله يطهّر قلب الإنسان المؤمن من سطوة هذا الحبّ ومن هذا الخوف جميعا، ويلقي في روعه أنّ الله أحقّ من غيره أن يحبّه المؤمن، فالله يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ويقول في آية أخرى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦].

وبناء على هذه العقيد والإيمان بالله يعتقد اعتقادا جازما بأنّه لا يصيبه شيء في هذه الدنيا إلاّ بعلم الله وإذنه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

إنّ قوّة الصّبر والتوكّل على الله، هي القوّة التي استطاع بها أولو العزم من الرسل أن يواجهوا مصائب الدنيا، ويصارعوا دولها العاتية، وأممها القويّة. ومن المحال أن ينال الإنسان هذه القوّة والشّجاعة، وهذه الصّلابة في عزيمته بوسيلة أخرى غير الإيمان بالله؛ لأنّ الّذي لا يؤمن بالله، إنّما يتوكّل على الأسباب المادّيّة والوسائل الظّاهرة، التي قد تتخلّف مسبّباتها، ولا تتحقّق دائما باطراد.

أمّا الّذي قد التجأ إلى جانب الله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. ولا قبل لكلّ ما في الأرض من المصائب والآلام والشدائد أن تزحزحه عن الصّبر والثبات والعزيمة؛ لأنّ كلّ ما يسرّ أو يحزن إن هو في نظره إلاّ من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] فما له إذن لا يضحّي بنفسه وماله في سبيل نصرة هذا الإيمان والعقيدة التي امتزجت بنفسه ودمه؟ وفي سبيل الحياة التي سينالها عند ربّه؟ تلك الحياة المليئة بأسباب الهناء والسّعادة.

وإذا كان الأمر هكذا، فما له يخشى أحدا غير الله، والله وحده الذي ينبغي أن يخشاه ويخافه: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. أمّا الذين لا يؤمنون بالله فهم الذين يداخلهم الفزع والخوف من الموت، فيتولّون عن بذل مهجهم وأرواحهم في سبيل الله؛ لأنّهم يخشون النّاس كخشية الله أو أشدّ خشية.

فانظر أخي إلى هذا الإيمان كيف أنشأ المؤمن على هذه الكمالات، وبناه بناء جديدا على هذه الأخلاق المستقيمات.

وبالجملة، فإنّ الإيمان بالله يزكّي نفس الإنسان، ويطهّرها من الحرص والطمع والجشع، وما إليها من العواطف والأخلاق الرّذيلة. فهو ينشئ أفراد الجماعة الإنسانيّة على أساس متين من خشية الله في السّرّ والعلانية، ويطبعهم بطابع التزام القانون، والتقيّد بنظامه، والوقوف عند حدوده، ممّا ينشأ عنه صلاح حياتهم الاجتماعيّة، ويقيمهم على أساس من الحقّ والعدل والاستقامة.

١) مجلة الهداية، ج١، عدد١، ص١٣.

وقفة تربوية فقه تزكية النفس

تزكية النفس، الأمر الذي لا بدّ منه، فهي الطهارة والنقاء من العيوب التي تُدنّسها، وهذا ما أراده الله الحكيم من المسلم، حينما حضَّ على تزكية النفس في غير ما آية، كقوله سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}، [الشمس: ٦-١٠] فقد أقسم القرآن الكريم بأحد عشر قَسَماً على هذه النفس البشرية التي هي أعجب مخلوقات الله تعالى، وأشار إلى أن تزكيتها أو تدنيسها

بيد العبد سعياً وكسباً، فمدح المزكين لها، وذم المُدسِّسين لها، فعلى العبد أن يسعى جاهداً لتزكية نفسه بما يرقِّيها للمعالي التي تنجيه في الدنيا والآخرة، إذ لولا أن العبد يقدر على ذلك بتوفيق الله تعالى لما أسند الفلاح بتزكيتها إليه.

حكاية التزكية

حقيقةُ البَدء بتربية النفس الإنسانية صعبة، فهي أمام طريقين: إما الفلاح أو الذبول في طريق الفساد، الخطوة التي تخطوها –أيها الإنسان– هي أكبر مسار نحو سلاح تغزوه قوة أو تملأه ضعفًا لتسقط عن حربة الكفاح، فإن الحياة مريرةٌ وتتطلب منك الجهد المضاعف لِتخطي الأشواك التي قد تعتري ما يروي روحك لينعشها ويعينها على الاستمرار في مواجهة الشرور التي قد تواجهها، ولكنك تبقى عاجزًا أمام هواجس النفس لأنك سلّمتها لهواها ومغريات الدنيا وملذاتها حيث بات لا مجال لرفض ما تطلبه نفسك منك، وعاقبة هذا كما قال تعالى {قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ١٠].

إن النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادته –كما ذكر الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، والنفس هي الإنسان حقيقةً، ففي صلاحها صلاحه، وفي انحرافها هلاكه، فإن النفس هي مصدر كل ما يخرج من الإنسان من فعل أو شعور، لذلك فإن عامل التربية لهذه النفس مهم جدًّا في ضبط أفعالها وأقوالها، وإبعادها عمّا يوقعها في المذموم وقبيح الأخلاق.

ومن منطلق تزكية النفس، فإن التربية الإيمانية هي الحصن المنيع والقاعدة الحامية في رفع النفس إلى المعالي وجعلها بذرة صلاح وخير أينما حلّت ورحلت، حيث إن المؤمن التقيّ في القرآن هو المنغمس في العمل الصالح الذي هو أساس تزكية النفس وطهارتها، قال تعالى {فَمَن كانَ يَرجو لِقاءَ رَبِّهِ فَليَعمَل عَمَلًا صالِحًا} [الكهف: ١١٠].

صفات التربية الإيمانية

لا بد أن النفس تتأرجح يمينًا ويسارًا، فهي بحاجة إلى التنقية اليومية والمجاهدة والصبر بعدم مجاراة الهوى إلى ما يتعارض مع القيم والمبادئ التي أوردها كتاب الله واستفاضت فيها سنة نبيه ﷺ، فما هي صفات التربية الإيمانية للنفس.

إن أولى تلك الصفات هي تحمُّل المسؤولية؛ حيث إن الاعتماد على النفس في تحمّل تبعات أعمالها يجعلها أبعد عن الانسياق واتباع من هبّ ودبّ، فالاتباع الأعمى –بنظرةٍ إجمالية– لا يحقّق سوى الاتكال والتهاون مع النفس فيما يفسد صلاح دنياها وفلاحها في الآخرة.

بالرغم من ذلك فإن القرآن يحث المؤمنين على التوسّط وعدم الإسراف في ادعاء تحمّل المسؤولية، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة:١٠٥]، فالإنسان مطالب بتوظيف طاقاته الفكرية والاجتماعية والمالية في صلاح الأمة وخدمة الإسلام إلا أن الفشل –بعد أداء ذلك– يجب دراسته من جوانب كثيرة وليس من جانب لوم النفس وتحميلها المسؤولية وحدها.

أما ثاني تلك المبادئ فهو التحلي بالأخلاق الحميدة، فالنفس حين تلتزم بالقيم والأخلاق الفاضلة فإن ذلك يسهم في تزكية النفس وتطهيرها عما ينافي الفطرة السليمة، والمراد من ذلك تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرِك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد.

في ختام هذه المبادئ لا بد أن تكون النفس واثقة بعزتها ولا يكون ذلك إلا بالافتخار للانتماء للإسلام، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقين: ٨]، وقد نُقِل عن عمر الفاروق –رضي الله عنه–قوله: "كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا الله" وينبغي التنبه إلى أن عزة النفس لا تعني الإعجاب بالحسب والنسب والافتخار بسفاسف الأمور وأمراض القلوب، وإنما فقط بالانتماء للدين الذي هو الرفعة والعزة والكرامة للإنسان أينما وجد.

شوائب ومنغّصات

تتعرض النفس للعديد من الأمراض –يطلق عليها أمراض القلوب– مما ينبغي الحذر منه والبعد عنه مثل الرياء الذي حذر القرآن منه فقال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا} [النساء:١٤٢] وكالحسد الذي قال تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} [النساء:٥٤] والكبر الذي قال تعالى عنه {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف:١٤٦] وغير ذلك من الأمراض المختلفة التي حذر منها

القرآن والتي تمزق إيمان القلب البشري ورقته حين تتغلغل فيه وتؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن الحق وسوء الأخلاق، وضعف النفس أمام الشهوات والمحرمات.

يجب على كلٍ منا السعي إلى فهم ذاته وما يتخللها من هشاشة وضعف مهما صغرت؛ حيث إنها مع صغرها تثقل كاهل الإنسان وتوصله إلى الحضيض بسبب تراكمات ليست في الحسبان، وبذلك يجب السعي إلى التخلص من العثرات المحطمة وتجنبها قدر الإمكان، وبناء أرضية توفر للقلب الحماية من مسببات الأمراض النفسية أو القلبية.

ما أجهل الإنسان يضني بعضه بعضًا ويشكو كلّ ما يضنيه

ويظنّ أن عدوّه في غيره وعدوه يمسي ويضحي فيه

إن الالتزام بالأخلاق أمر لا بد منه للعناية بالنفس وعدم إهمالها، وهذا هو الطريق الذي اهتم به القرآن وحضّ المؤمن بالله عليه، فهو سبيل الاتزان والالتزام

اثر الصلاة في تزكية النفس

تترابط العبادات الإسلامية في وحدة متكاملة تلتقي فيها الغايات مع الأساليب والثمرات حتى ينال العبد رضاء الله ويحظى بمحبته ويبلغ المنزلة العظمى في تزكية النفس وصلاح القلب، ولنستعرض أبرز الآثار التي ينالها العبد من صلاته في مجال التزكية.

تأتي الصلاة في مقدمة العبادات التي تؤدي دورا عظيما في تقوية إيمان المسلم وتربيته وتحقيق عبوديته لربه عز وجل، ولعل من أبرز آثارها في مجال تزكية النفس ما يلي:

١-الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

فالمسلم عندما يقف بين يدي ربه لأداء الصلاة إنما يستجيب لأمر الله ويتقرب إليه بطاعته، ويعلن الضوع والتذلل له سبحانه ويتشرف بالعبودية له.

وقد أثنى الله تعالى عباده المؤمنين الذي استجابوا لأمره، فقال عز وجل: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الشورى: ٣٨].

ولا تتحقق معاني العبودية الصادقة لله سبحانه إلا إذا اقترنت بصدق التوجه إليه والإخلاص له سبحانه، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فالعبد في صلاته يقف بين يدي ربه موقف العبودية والتذلل والانكسار، ولا يلتفت يمينا أو يسارا، ويتوجه بكليته إلى ربه، ثم يكبر بالتعظيم والإجلال مستحضرا ألا يكون في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه، ثم يثني على الله سبحانه بما هو أهله، فإذا شرع في القراءة قدم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإنه أحرص ما يكون على الوسوسة للعبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبودية[١] .

ولكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثير في النفس، فقراءة سورة الفاتحة مع التدبر تشعر العبد بعبوديته لربه، فهو عندما يتلو: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] يثبت كل كمال لله سبحانه ويحمده على ما وفقه إليه من الطاعة وما أنعم عليه من النعم، ويثني عليه بصفاته وأسمائه الحسنى.

وكذلك عندما يتلو: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] يقر بالتوحيد والاستعانة بالله وحده، فاللخ هو المعبود وهو المستعان، وكل استعانة لا تكون بالله فهي خذلان وذل.

وعندما يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] فهو إقرار من العبد بأنه مفتقر إلى الهداية والثبات على طريق الحق، وأنه محتاج إلى ثمار الهداية والاستزادة منها، والبعد عن سبل المغضوب عليهم والضالين[٢].

وهكذا تتجلى في كل أفعال الصلاة العبودية لله سبحانه، وإقبال العبد على ربه، وتوحيده وتقوية الإيمان به الذي هو أساس التزكية، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة، وهي التي تنير للعبد طريق حياته وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس، ثم إن تحديد الصلوات بأوقات معينة لا يجوز تجاوزها يدرب المسلم عمليا على الطاعة والامتثال لأمر الله، وضبط النفس بميزان الشرع وتعويدها على التقيد بأحكام الإسلام دون تهاون، فالصلاة لها أوقات مفروضة، كما قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: ١٠٣].

٢-مناجاة العبد لربه:

الصلاة صلة بين العبد وربه، يستمد منها القلب القوة وحس فيها النفس بالثبات والطمأنينة، فهي معراج روحي تسمو به روح المؤمن.

---

[١]الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن، لابن القيم ص(٣١).
[٢]ينظر: الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن لابن القيم(٣٥-٤٠).

وهذا ما جاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:" إن المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه"[1].

ولعل هذا سر من أسرار تكرار الصلاة المفروضة في اليوم خمس مرات، ينتزع فيها الإنسان نفسه من دنياه وما فيها من أحقاد وصراعات، ويقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفف بها عن نفسه من هموم الحياة ومتاعبها، ويغذي الجانب الروحي من كيانه، ذلك الجانب الذي لا يغذيه إلا معرفة الله سبحانه وتعالى وحسن الصلة به[2]، ومناجاته بخشوع والتقرب إليه بالعمل الصالح.

ولنتأمل مشهدا من مشاهد هذه المناجاة فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبيد ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[3].

ولذلك قال الإمام ابن القيم:" ينبغي للمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسير ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه"[4].

ولا شك أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان، إذا هيأ العبد نفسه لها، ولم ينشغل في صلاته بالتفكير في أمور الدنيا، وإنما أقبل عليها إقبال المتشوق للوقوف بين يدي ربه الوافد عليه، المستمر لرحمته وفضله، يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله.

٣-طمأنينة النفس وراحتها

إذا أقبل العبد على صلاته بهمة ورغبة واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه، فإن تلك الصلاة تمده بقوة روحية وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة، ولذلك قال الله تعالى موجها عباده

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة(١/١٠٧)، ومسلم، كتاب المساجد (٥٥١).
(٢) العبادة في الإسلام للقرضاوي (٢١٦).
(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).
(٤) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة لابن القيم (٣١).

إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣].

فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة ومصائبها، يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه فيجد راحته ويحس بتأييد الله له ورحمته به.

فعن حذيفة رضي الله عنه قال:"كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى"[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" وجعلت قرة عيني في الصلاة"[٢].

وكان الرسول ﷺ يقول:" قم يا بلال فأرحنا بالصلاة"[٣].

أي: أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله.

وهكذا يشعر المؤمن في صلاته بالسكينة والطمأنينة ويفزع إليها كما يفزع الخائف إلى ركن ركين ومكان أمين.

ولذلك لم تكن الصلوات مقصورة على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة، تزيد من صلة العبد بربه، وتقر بها يعنه، وتأمن بها نفسه، حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم والمفتاح لحل همومه ومشاكله.

ولا شك أن المتأمل للحكم العظيمة من صلاة الاستسقاء والخسوف وصلاة الحاجة وصلاة الاستخارة، يدرك الحكمة الربانية في توجيه انفعال الخوف والفزع عند المسلم، وتحقيق الراحة والسكن النفسي للمؤمن الذي كلما واجهه كرب أو أحاط به خوف فزع إلى الصلاة والتجأ إلها، ولهذا كان السلف الصالح يكثرون من صلوات النوافل وبخاصة في الليل إذا نام الغافلون ولها اللاهون.

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى بعض أقول علماء النفس الغربيين في الاعتراف بأمية الصلاة لبث الطمأنينة في النفس وعلاجها من أمراضها.

يقول "ألكسيس كارليل:" إن الصلاة تحدث نشاطا روحيا معينا يمكن أن يؤدي إلى الشفاء السريع لبعض المرضى"[٤].

ويقول:" توماس هايسلوب":" إن الصلاة أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة في النفوس وبث الهدوء في الأعصاب"[٥].

---

[١] رواه أبو داود في الصلاة رقم(١٣١٩)، والإمام أحمد في المسند(٣٨٨/٥)، وانظر: صحيح الجامع للألباني (٤٥٧٩).

[٢] رواه النسائي (٦٢/٧)، ورواه أحمد في مسنده(١٢٨/٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والحاكم (١٦٠/٢)، وصححه وأقره الذهبي.

[٣] رواه أبو داود رقم(٤٩٦٤)، ورواه الإمام أحمد (٣٦٤/٤)، وغيرهما.

[٤] الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كارليل ص(١٧٠).

[٥] القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي ص(٢٥٦).

وكلامهم هذا-مع أهميته- عن صلاة ليست كصلاتنا نحن المسلمين، فماذا كانوا يقولون لو عرفوا ما هي الصلاة التي جاء بها ديننا الإسلامي، وما فيها من آثار عظيمة وفوائد كبيرة.

٤-الصلاة حاجز عن المعاصي

عندما يؤدي العبد الصلاة وترتاح بها نفسه فإنها تمده بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في قلبه مراقبة الله عز وجل ورعاية حدوده والابتعاد عن الانحراف، والتغلب على نوازع الهوى، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء، فهي سياج منيع يقيه من الوقوع في المعاصي، ولذلك قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥].

وبهذا الأثر العظيم من آثار الصلاة تتبوأ تلك العبادة المنزلة السامية في علاج النفس من أمراضها، وتطهيرها من عيوبها وتزكيتها بالعمل الصالح، وغرس الأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة مع الناس والمسارعة إلى فعل الخير.

ولكن واقع كثير من المسلمين مع الصلاة اليوم مختلف تماما لأنها تؤدى بالأجساد دون الأرواح، حتى أصبح البعض يشكك في تأثير الصلاة وثمارها، لأنه قلما يرى صورة تطبيقية مثمرة لها.

٥-الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات:

لا يخلو مؤمن من زلة أو هفوة يعصي بها ربه، وهذه المعاصي يتراكم أثرها على القلب حتى يظلم، ولابد لها من استغفار وتوبة دائمين.

ومن رحمة الله سبحانه بعباده أنه جعل الأعمال الصالحة تكفيرا للسيئات ورفعا للدرجات، وبخاصة الصلاة وما يصاحبها من وضوء ومشي إلى المسجد وذكر وتسبيح.

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة منها:

-عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقة فقال:" يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق، وقرأ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤]"[١].

---

[١] رواه أحمد في مسنده (٤/٧٠، ٥/٤٣٧).

-وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة"(١).

ولا شك أن هذا التكفير خاص بالصغائر التي لا يصر عليها العبد، أما الذنوب الكبائر فلا بد لها من توبة نصوح.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:" الصلوات الخمس والجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر"(٢).

كما أن للصلاة التي يكفر الله بها السيئات شروطا لا بد من تحققها وهي إكمالها وأداؤها بأركانها وخشوعها، وبذلك تثمر محو الذنوب وتكفير الخطايا.

وهذا ما أكده الحديث النبوي عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوئها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله"(٣).

وعندما يكرر المسلم الصلاة خمس مرات يوميا ويزيد عليها ما شاء الله أن يزيد من النوافل، يكن الله عليه بالمغفرة مرة بعد مرة، حتى تغسل أدران ذنوبه فلا يبقى منها شيء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:" أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"(٤).

ولا شك أن المسلم الذي تطهر من الذهوب وحظي بمضاعفة الأجر وزيادة الدرجات، بما حافظ عليه من الصلوات، فإنه يرتقي في مقامات القرب من الله سبحانه، وبذلك تزكو نفسه ويظفر بالفلاح والسعادة.

٦-الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس

إذا أراد العبد أن يعود نفسه على الطاعات ويجاهدها حتى يروضها ويكسر من حدتها فعليه أن يكثر من الصلوات ويحافظ على النوافل ويحرص على التبكير إلى المساجد وإسباغ الوضوء على المكاره والبرد الشديد

(١) رواه مسلم كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا رقم(٦٦٦).
(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس مكفرات رقم(٢٣٣).
(٣) رواه مسلم، كتاب الطهاة، باب فضل الضوء (٢٢٨).
(٤) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها (١/١٣٤)، ومسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة رقم(٦٦٧).

الذي يشق على النفس، وغير ذلك من الأعمال المتعلقة بالصلاة التي تكبح جماح النفس، طمعا في القرب من الله سبحانه وتكفير الذنوب ورفع الدرجات.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال:" ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط"(١).

٧-الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد:

الصلاة في خصوصيتها إذا أديت كاملة فإنها تغرس في نفس صاحبها ذل العبودية لله وحده وعزة المؤمن القريب من مولاه، فلا يتكبر على مسلم ولا يحقد على غيره لأنه غني بالله سبحانه.

كما أن الصلاة في المسجد تحقق أهدافا وحكما عظيمة، فهي تعارف وتآلف بين ابناء الحي الواحد والبلد الواحد، يصلي المسلم بجانب أخيه في صفوف متراصة، يقف فيها الغني بجانب الفقير، والشاب بجانب الشيخ الكبير، وهذا بلا شك تدريب عملي على تطهير النفس من أنانيتها ونزع آفة الكبر والعجب منها، فالكل عبد ذليل لإله واحد مستحق وحده للعبادة، يتضرع إلى الخالق سبحانه ويناجيه، ويغسل أدران ذنوبه بالوقوف بين يديه.

وهذا اللقاء المتكرر يزيد بلا شك الألفة بين المسلمين ويقوي روابط الأخوة، ويوثق العلاقات الاجتماعية، ويحقق التعاون على البر والتقوى، ويعين على تفقد الأخ لأخيه، ويزيل الفوارق المادية بين المسلمين، فالكل يستقبلون قبلة واحدة يتجهون إليها في صلاتهم، وإلههم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد.

وإذا جاء يوم الجمعة كان اللقاء الأسبوعي الذي يتميز بخصائص كثيرة، ففيه خطبة الجمعة التي تعالج مشكلات المسلم وتربطه بربه وتحثه على الاستقامة وتهذيب سلوكه وتوصيه بتقوى ربه ولعظيم فضل خطبة الجمعة وآثارها في تكوين شخصية المسلم فقد أمر الهادي البشر ﷺ بالإصغاء إليها وعدم التكلم أثناءها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:" إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت"(٢).

ثم يأتي اللقاء الأكبر في عيد الفطر وعيد الأضحى ليظهر المسلمون مشاركتهم بأفراح العيد وابتهاجهم بما أتم الله عليهم من التوفيق للطاعة في الصيام والحج.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم(٢٥١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الانصات يوم الجمعة والإمام يخطب، (٢٢٤/١).

وهكذا تتضافر الآثار التربوية والنفسية التي يغنمها العبد المصلي، وتؤدي الصلاة دورها في تكية النفس وطهارتها، ويتحقق قول الرسول ﷺ الذي سبقت الإشارة إليه حيث قال:" والصلاة نور"[١].

فعي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصالح.

وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة لربه.

وهي نور بما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة وبما تمدها من أمن وسكينة.

وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، يجد بها وضاءة الوجه وبهاءه بخلاف تارك الصلاة.

وهي نور له يوم القيامة: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد:١٢].

أثر الإخلاص في تزكية النفس

فإن تربية النفس وتزكيتها أمر مهم غفل عنه أمة من الناس، ومع انتشار الخير وكثرة من يسلك طريق الاستقامة ويعمل في حقل الدعوة إلا أن البعض يروم الصواب ولا يجده، وينشد الجادة ويتيه عنها، تقطعت به السبل وانبرى له الشيطان فاتخذه مطية له ومركبا سهلا يسير به في لجج الرياء والسمعة والعجب والمباهاة، ظلمات بعضها فوق بعض.

ولقتل حظوظ النفس هذه، لا بد من التمسك بالإخلاص الذي هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة الرسل – عليهم السلام –، قال – تعالى –: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} [البينة:٦]

وقال الله – عز وجل –: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [الملك:٢]

قال الفضيل بن عياض: "هو أخلصه وأصوبه".

قال – ﷺ – في الحديث العظيم الذي هو أصل من أصول الإسلام: " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.. " [رواه البخاري ومسلم].

وقال – ﷺ –: " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " [رواه الترمذي]

قال ابن تيمية – رحمه الله –: " إن الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدرا وشانا، بل إن أعمال القلوب عموما أكبر وأهم من أعمال الجوارح، ولا يغتر المسلم فإن أداء الطاعة بدون

---

[١] رواه مسلم رقم٢٢٣

إخلاص وصدق مع الله لا قيمة له ولا ثواب، بل صاحبها متعرض للوعيد الشديد، وإن كانت هذه الطاعة من الأعمال العظام كالإنفاق في وجوه الخير وقتال الكفار وغيرها ".

وحتى هذا العلم الذي ينفع الله به البلاد والعباد إذا لم يكن صاحبه صادق الإخلاص لله – عز وجل – في طلبه، ثم في بذله فإنه متوعد يوم القيامة على لسان رسول الله – ﷺ –: " من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله – عز وجل –، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة (يعني ريحها) يوم القيامة " [رواه أبو داود]

ومن صور تلك الحظوظ المهلكة:

أولا: محبة المدح والثناء: فتراه يطل برأسه وترتفع هامته وتشرف نفسه إلى صوت مادح، أو ثناء في مجلس.

قال الحسين بن زياد: "لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يخبر عن عمله، لعله يكون كثير الطواف، فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائما فيقول: ما أثقل السحور، وما أشد العطش، فإن استطعت ألا تكون محدثا ولا متكلما ولا قارئا، إن كنت بليغا، قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغا قالوا: ليس يحسن يحدث، وليس صوته بحسن، أحزنك وشق عليك، فتكون مرائيا، إذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمك ومن مدحك من دون الله فتكلم".

ثانيا: كثرة الحديث عن أعماله وما لاقاه من كد وتعب ونصب، وهذه قد يكون ظاهرها محبة هذا الدين وبث الحماس لكنها في قرارة النفس إبراز أعمال الشخص وما يلاقيه في سبيل الدعوة، رغبة في رفع مقامه لدى الناس وتصيد قلوبهم وكسب ثنائهم.

قال القرطبي– رحمه الله –: "حقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس".

ثالثا: نسبة عمل الجماعة إليه، فتراه يحب أن يظهر أمام الرؤساء والمديرين على أنه الرجل الذي قام بالعمل، وهو صاحب الفكر، وهو الذي أشار بالأمر! وقد يستمر به مسلسل الادعاء حتى يقع في خطر أعظم وهو نسبة أعمال إليه لم يقم بها، وينطبق عليه قول الله تعالى: {لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم} [آل عمران:١٨٨]

رابعا: ذم النفس، يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم، ويمدحونه به وتنطلق الألسنة تثني على تواضعه وما أزهده وما أنبله!! وهو والله ما أهلكه.

خامسا: التحدث بكثرة الداخلين عليه والخارجين منه، وأنهم لم يتركوا له وقتا للقراءة وهذه من تلبيس إبليس على العاملين، فتراه يتحين الفرص للجواب عن سؤال عن القراءة أو الإنتاج العلمي؛ ليخبرك أنه مشغول مع الناس وكثرة سوادهم لديه وأنه مقصد لهم، ولهذا ضاعت عليه الساعات الطوال!

قال سعد بن عبد الله: "نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله – تعالى –، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا".

سادسا: العجب بالنفس، وأعمالها وتفانيها في خدمة الناس وانه قدم وقدم، وفكر وقدر، ومساء البارحة لم تكتحل عينه بالنوم هما وغما لحال المسلمين، فرحم الله حصين بن عبد الرحمن عندما قال: "أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت".

قال مسروق: "كفى بالمرء علما أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعمله".

وقال عبد الله بن المبارك في تعريف العجب: "أن ترى الناس عندك شيئا ليس عند غيرك".

وقال ابن القيم في الفوائد: "لا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد منة الله وتوفيقه والاستعانة به والافتقار إليه وإخلاص العمل له".

وتأمل في حال من أعجبته نفسه في حلة لبسها، قال – ﷺ –: " بينما رجل يتبختر في حلة قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة " [متفق عليه].

سابعا: استغلال الفرص لإبراز الأعمال، فإن ذكرت آسيا فهو الخبير بها، وإن ذكرت أفريقيا قال: لي عشر سنوات وأنا أذهب إليها سنويا مرة أو مرتين، وإن كان الحديث عن أوروبا فإنه هو الذي دفع بالشباب ليذهبوا هناك حيث الدعوة والإغاثة، وأنهم وافقوا بعد جهد وعناء بذله!

وإن تحدثوا عن الفقراء، فهو العليم بأحوالهم المتابع لأخبارهم، ثم يسرد لك ما يعرف وما لا يعرف.

وإن كان من أهل مغاسل الأموات بدأ حديثه بخمسة عشرة جنازة غسلها في يوم واحد، ثم نقلك بحديثه إلى السدر والكافور لكنه ليس مذكرا ومخوفا! بل مدعيا مباهيا.

والآخر مما يعلمون في نصح الناس يسرد لك الأمر سردا، ثم يضاعف الأرقام مضاعفة عجيبة وكيف اهتدوا على يديه! ونسي المسكين أن الأمة هداها الله عز وجل على يد رجل واحد – ﷺ –، وأن أبا بكر– رضي الله عنه– أسلم على يديه ستة من العشرة المبشرين بالجنة. هذا قبل الهجرة فحسب، فأين الثرى من الثريا؟!

ثامنا: ذكر تقدير العلماء والمشايخ له، وأن فلاناً من طلبة العلم خصني بحديث لا يعرفه أحد، وأن فلانا من العلماء سألني عن كذا وكذا وقام وودعني بنفسه! وسلسلة الخرز هذه طويلة إذا انقطعت!

قال محمد بن واسع: "إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به".

تاسعا: ذم الآخرين لإبراز نفسه ووجه نظره، فلو كنت مكان فلان ما فعلت، ولماذا الاستعجال، الأمور تؤخذ بعقل.. ثم يسرد لك موقفا يظهر فيه نفسه وكيف تصرف بحكمة واتزان وأنهى الأمر حسب ما يراه!

قال بعض العلماء: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

وفي وسط هذه المهلكات– والعياذ بالله– تبرز صور مشرقة لأهل الإيمان ممن قتلوا حظوظ النفس.. فما أجمل صورة ذلك المؤمن الذي يعمل ويكره أن ينسب إليه شيء، وما أعظم من يجد، ويجتهد ولا يرى نفسه إلا أنها حقيرة في جنب الله، بل ما أعظم من كتم حسناته كما يكتم سيئاته!

ولأهل الدعوة يقول ابن الجوزي: "ما أقل من يعمل لله تعالى خالصا، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم، اعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالعمل وإخلاص القصد وستر الحال هو الذي رفع من رفع".

ولأهل الآخرة قال سهل بن عبد الله: "ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها في نصيب".

أخي المسلم: كان الحسن يقول: "روي أنه من قبل الله تعالى من عمله حسنة واحدة أدخله بها الجنة، قيل: يا أبا سعيد: فأين تذهب حسنات العباد؟ فقال: إن الله عز وجل إنما يقبل الخالص الطيب المجانب للعجب والرياء، فمن سلمت له حسنة واحدة فهو من المفلحين".

عاشرا: لإظهار النفس ترى البعض إذا عرض عليه عمل وإن كان يسيرا اعتذر مباشرة وله الحق إن شاء ذلك، لكن أن يعتذر بادعاء كثرة الأعمال والانشغال وتعدد الارتباطات و..! بل أصبح الادعاء بكثرة الأعمال موضة ظاهرة على ألسن بعض الناس، ومن الطرائف أن رجلا خطب امرأة وذكر لها أنه مشغول بأمر الدعوة وأسهب في ذلك وقد لا يجد الوقت لإعطائها حقها. فردته وقالت إما أنه كاذب أو مراء. كاذب يدعي، أو يرائي؛ ليرتفع في عيني، وإلا أين هو من رسول الله – ﷺ –، وأين هو من العلماء العاملين؟!

الحادي عشر: أحدهم يزور مكتبا للدعوة دقائق معدودة كل ثلاثة أشهر، وكلما جلس مجلسا تحدث عن المكتب وأعماله وإنجازاته وتسيد الحديث وكأنه المسؤول الأول عن المكتب فيظهر دقيق الأمور وجليلها، ثم يطرح ما قرأ من مشاريع وطموحات ليوهم أنه يحمل هم الدعوة وأنه يجد مشقة في التردد على المكتب.

الثاني عشر: هناك من تستشرف نفسه لدرع يقدم له أو شهادة شكر تصل باسمه! ويصغي بسمعه أن يثنى عليه وعلى جهده! أو يتحدث ويكتب عن سيرته ماذا قدم وفعل؟!

أخي المسلم: كل عملك الذي تقدمه فهو قليل في جنب الله وإن ظهر لك مثل الجبال. فاجمع على قلبك الخوف والرجاء وتذكر قول ابن عوف: "لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل عنك أم لا؟! إن عملك مغيب عنك كله".

واحفظ عملك بالإخلاص، واكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك، وأبشر بخير عظيم إذا قصدت وجه الله عز وجل، يقول ابن تيمية في هذا الشأن: "والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر الذنوب كما في حديث البطاقة، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون التوحيد، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة". ثم ذكر –رحمه الله– حديث المرأة البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها، والرجل الذي أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له، ثم قال: "فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها. فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال".

أخي المسلم: أسباب الرياء وبواعثه ترجع إلى ثلاثة أصول:

الأول: حب لذة الحمد والثناء من الناس.

الثاني: الفرار من الذم.

الثالث: الطمع فيما أيدي الناس من مال أو جاه وغيره.

وهذه الأمراض خطيرة على الإنسان وربما تكون سببا في سوء خاتمته؛ لأن ظاهره مخالف لباطنه– والعياذ بالله–.

وليتذكر أحدنا قول الحسن: "رحم الله رجلا لم يغره كثرة ما يرى من الناس. ابن آدم، إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك".

جعل الله أعمال الجميع صوابا خالصة لوجهه الكريم، لا رياء فيها ولا سمعة، ولا عجب ولا منة، بل المنة والفضل لمن هدى ووفق وأعان وسدد جل وعلا.

اثر الإحسان في تزكية النفس

إن الإحسان مشتق من «الحُسن» الذي هو الجمال والبهاء لكل ما يصدر من العبد من خطرات ونبرات وتصرفات، وهو أعلى مقامات الرفعة الإنسانية، والمفتاح السحري لكل أزماتها وجسر سعادتها الأبدية،

وكفى الإحسان شرفا أن البشرية جمعاء اتفقت على حبه ومدحه وأجمعت على كره ضده من كافة صنوف الإساءة، ولذلك أولى الإسلام الإحسان عناية بالغة وجعله أسمى هدف تصبو إليه نفوس العابدين، وهو طريق الوصول لمحبة الله تعالى ومعيته ورحمته، بل ورؤيته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، في جنة الخلد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

من أبلغ الأقوال في الإحسان قول من أوتي جوامع الكلم – ﷺ-: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (البخاري ومسلم).

ففي هذه الكلمات النبوية الجامعة من مقتضيات المراقبة والخشية والإنابة والإتقان والاتباع وصفاء السريرة .. ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. فبيَّن ﷺ أن الإحسان على مرتبتين متفاوتتين:

(أعلاهما) عبادة الله كأنك تراه، وهذا «مقام المشاهدة»، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه حيث يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان، وهذا هو حقيقة مقام الإحسان. ولذلك لما خطب عروة إِلَى ابن عمر ابنته وهما في الطواف لم يجبه بشيء، ثم رآه بعد ذلك فاعتذر إِلَيْهِ، وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا».(الحلية، أبو نعيم).

الثاني: «مقام المراقبة» وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله تعالى وإرادته بالعمل، قال الحارث المحاسبي: «أوائل المراقبة علم القلب بقرب الرب»، وقال بعض السَّلف: «من عمل لله عَلَى المشاهدة فهو عارف، ومن عمل عَلَى مشاهدة الله إياه فهو مخلص».

ويتفاوت أهل هذين المقامين بحسب نفوذ البصائر ؛ لذلك قال النووي –رحمه الله–: (وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين).

وقالوا أيضا في الإحسان: «فعل الخيرات على أكمل وجه». «تحسين الظاهر والباطن». «الإتيان بغاية ما يمكن من تحسين العمل المأمور به، ولا يترك شيئاً مما أمر به». «امتلاء القلب بحقيقة الألوهية كأنه يشاهد الله عياناً». «مراعاة الخشوع والخضوع».

وبالجملة فالإحسان هو الذي خُلقنا من أجله، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} ثم بيّن الحكمة فقال: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} (الملك:٢).

والإحسان ذروة الأعمال، وهو أن تقدم الفعل من غير عوض سابق، بل يساء إليك ولا يسعك إلا أن تقدم الإحسان، كما فعل يوسف الصديق عليه السلام {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} (يوسف: ٤٦-٤٨)فعاملهم بالإحسان فلم يعبر لهم الرؤيا فقط بل أعطاهم الحل معه {فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ}.

بل إن الذي يستلفت النظر في قصة يوسف عليه السلام كثرة تكرار صفة الإحسان، فكان محسنا مع ربه ومع الناس –وهما متلازمان– فقد سمى الله قصته {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ} (يوسف:٣)أي من أحسنه.

ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (يوسف:٢٢).

ووصفه السجناء بذلك {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف:٣٦).

وبه مكنه الله تعالى في الأرض {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف:٥٦).

وقال له إخوته وهم لا يعرفونه {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف:٧٨).

وقال عن نفسه وأخيه {قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف:٩٠).

ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه {وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (يوسف:١٠٠).

فلم يذهب إحسانه سدى، فكل إحسان يفعله العبد حتى فيمن لا يستحقون لابد أن يكافئه عليه الله تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} (الرحمن:٦٠)فاصنع المعروف في أهله وفي غير أهله، فإن صادف أهله فهو أهله، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله.

والإحسان خير مكانة يتبوأها العبد لأنه إن أساء وسعه بعده الإيمان ثم الإسلام، أما من يعيشون على الحد الأدنى للإسلام فهو مع النقص مهدد بكفر الاعتقاد أو كفر النعمة.

قال ابن تيمية: (جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام. فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسنا، ولا كل مسلم مؤمنا ..)، ثم قال: (وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان، والإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين).

وخلق الإحسان يتسع ليشمل القول والعمل والعبادات والمعاملات .. فهو إكسير الحياة الذي يحيلها طيبة متآلفة، لذلك جعل الله تعالى رحمته ومحبته جائزة المحسنين {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران:١٣٤){إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} (الأعراف:٥٦).

كما أن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، ولذلك قال –ﷺ–: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (الترمذي)

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم*** فطالما استعبد الإنسان إحسان

وأعظم ثمرات الإحسان قوله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} (يونس:٢٦)الحُسْنَى: أي البالغة الحسن في كل شيء، من جهة الكمال والجمال، وهي الجنة، وقد ثبت عن النبي في صحيح مسلم تفسير الزيادة المذكورة في هذه الآية الكريمة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة، ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، جزاهم على ذلك العمل النظر إليه عياناً في الآخرة {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}(الرحمن:٦٠)وعكس هذا ما أخبر الله به عن الكفار في الآخرة بقوله: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} (المطففين:١٥) {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}(النجم:٣١).

إن الإحسان هو الأمارة الدالة على الفوز والنجاة. فمن كان من أهل السعادة، عَمِل عَمَل المحسنين، ومن كان من أهل الشقاء عمل عمل المسيئين. فهو طريقك وهدفك ومحل كدك ونصبك .. روى الطبراني عن أبي سلمة عن معاذ –رضي الله عنه– قال: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية» (حسن لغيره،

أثر الزكاة في تزكية النفس

إن الزكاة في الشرع هي الحصة المقدرة التي فرضها الله في الأموال الزكوية للمستحقين وفي اللغة هي البركة والنماء والطهارة، وإن كانت تنقص المال في الظاهر فإنها تزكيه وتطهره وتنميه في المعنى، كما تزكي مخرجها أي تطهره من الذنوب قال تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا {التوبة:١٠٣} قال البغوي في تفسيره: قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ بها من ذنوبهم وتزكيهم بها أي ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين وقيل تنمي أموالهم

الزكاة:

فريضة اجتماعية، تقومُ على البذل بالتنازلِ عن جزءٍ من المال الذي يملِكُه المسلم؛ طاعةً لله، وابتغاء ثوابه.
وتؤدَّى الزكاة وَفْق شروط معينة، والزكاة هي تطهيرٌ للمال، وتزكية، وتنمية له بفضل الله عز وجل؛ قال الله – تعالى –: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تطهِّرُ النفسَ من البخل والقسوة والأثَرة، وتبني مجتمعًا متكاملاً، وهي إحساس بالفضل والنعمة التي أنعم اللهُ بها على الإنسان، والزكاة من الأمور التي تساعد النفسَ على تزكيتها وارتقائها على بذل المال.
قال الله – تعالى –: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].
وللزكاة تأثيرات تربوية بالغة الأهمية في تكوين شخصية الفرد كعضو صالحٍ في المجتمع الذي يعيش فيه، وتشترك معه في تحقيق الأهداف والغايات والمنافع المشتركة.
كما أن الزكاةَ تساعد في إصلاح البشرية، ومنعِ الفساد في الأرض، وإقامة مجتمع متضافرٍ، القوي يأخُذ بيد الضعيف، والغني يمد يديه للفقير في مودة ورحمة، مطبِّقًا لشرع الله، وإن التربية الإسلامية من شأنها أن تُظهِرَ المواهب والقوى؛ بحيث تخصص كل قوة لِما هي له، فلا تخبو قوةٌ كانت تستطيع العمل، ولا ينطفئ نورُ عقل كان يمكنُ أن يجتهد ويستنبط، ومن يعجز عن العمل تتكفل الدولة أو الجماعة الإسلامية بسدِّ حاجته، ورفع العوز؛ فقد جُعِل لهؤلاء حقٌّ في أموال الأغنياء.

ومن الآثار التربوية للزكاة:

١) قد قرنت الزكاة بالصلاة؛ فكانت عنوان الأخوة الإسلامية؛ قال الله – تعالى –: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

وقال الله – تعالى –: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١].

٢) تزكية للنفس من الرذائل، وخاصة البخل، والشح والجشع، والطمع والشَّر، التي تنعكس آثارها السلبية على حياة الجماعة.

٣) تساعد الزكاة على إعطاء كل ذي حق حقَّه، وعدم التقاعس في أداء الحقوق، وإعانة كل المحتاجين مع توفر الاستطاعة.

٤) تعوِّد الزكاةُ الإنسان الصالح على التحلّي بالأخلاق والفضائل، وخاصة الإيثار والبذل، والكرَم والجود، والتضحية في سبيل الآخرين.

٥) "تقوّي الزكاة في المؤمن روحَ الانتماء الاجتماعي، والاهتمام بأمر الجماعة، ومشاركتها الإيجابية الفعالة فيما يحقِّقُ سعادتها، ويخفف من بؤسِها.

٦) تُسهِمُ الزكاة في إقامة المصلحة العامة ذات الأهداف والغايات المشتركة بين مختلف أعضاء الجماعة؛ فقراء وأغنياء، والتي تتوقَّفُ عليها حياةُ الجماعة وسعادتها وتقدمها"[١] .

٧) تقوم الزكاة بالحد من تكدس الأموال لدى الأغنياء، وهي "مما يوجبُ الأمنَ في البلاد؛ لسد الحاجة للفقراء والمحتاجين؛ مما يؤدِّي إلى اتحاد الرعية، وسعادة الجميع وهنائهم"[٢].

٨) شعور المؤمن المؤدي زكاة ماله بالسكينة والطمأنينة في نفسه، والراحة والرضا؛ لإحساسه بأنه أدى حقَّ الله – تعالى – عليه، وطهَّر مالَه وزكَّاه؛ فالزكاةُ مصدر سعادة مستمرة في حياته؛ مما يحفزه على البذل والعطاء والمزيد من العمل؛ حتى يزيد من إعمار الأرض ويحقق خلافته فيها.

---

(١) عبدالحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص: ٣٨٨.
(٢) علي أحمد الحنبلي، حكمة التشريع وفلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص: ٨٥.

اثر اليقين في تزكية النفس

لليقين آثار كثيرة وثمرات عظيمة في حياة العبد ومعاده، ومن تلك الثمرات ما يلي:

١- اليقين من أعظم أسباب حياة القلب وطمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة، فاليقين يزيل الريب والشك والسخط، ويملأ القلب نوراً وإشراقًا ورجاءً وخوفًا من الله ومحبة له، ورضى بما قدر، وهو من أسباب زيادة أعمال القلوب كالتوكل والإنابة والخوف والخشية وإحسان الظن بالله تعالى، ولابد لليقين من علم صحيح يوصل بالخوف والرجاء فهما يدفعان إلى العمل بتحري الإتباع والإخلاص (انظر: مفتاح دار السعادة) .

وتأمل حال خليل الرحمن إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام عندما سأل ربه قائلًا كما أخبر الله تعالى عنه: " رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " (البقرة: ٢٦٠) فإبراهيم عليه السلام بسؤاله هذا " أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة " (تفسير القرآن العظيم) فقال الله تعالى له: " أَوَلَمْ تُؤْمِنْ " فأجاب إبراهيم عليه السلام بقوله: " بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " فرضي الله من إبراهيم قوله: " بَلَى" وعلم سبحانه من حال هذا الرسول الكريم أنه يريد زيادة الاطمئنان واليقين، وإزالة ما قد يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان (تفسير القرآن العظيم) .

فازداد إبراهيم عليه السلام باليقين إيمانًا وقوة حجة وبرهان .

٢- اليقين من أعظم أسباب قوة الإيمان وزيادته، وبه تنال الإمامة في الدين، يقول ابن القيم سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: " بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ " (السجدة: ٢٤) (مدارج السالكين) .

كما أن من ثمراته العظيمة قوة التوكل على الله –كما أشرت في الثمرة الأولى – هذا العمل القلبي العظيم، فكلما ازداد اليقين في نفس العبد قوي توكله، قال تعالى: " فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ " (النمل: ٧٩) والحق هنا هو اليقين كما ذكر ابن القيم رحمه الله (مدارج السالكين) .

٣- اليقين سبب لتوفيق الله لعبده للجواب الصحيح حين سؤال الملكين في القبر – نسأل الله الثبات على الحق –كما أن اليقين سبب لدخول الجنة: فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «...ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، فأوحي إلى أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتبعنا، هو محمد ثلاثًا، فيقال نم صالحًا قد علمنا إن كنت لموقنًا به، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته» (أخرجه البخاري ومسلم) .

ويشهد لذلك الحديث السابق ذكره وهو قوله ﷺ لأبي هريرة: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»(أخرجه مسلم) وكذلك جاء في سيد الاستغفار قوله ﷺ: «من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» (أخرجه البخاري) .

٤- اليقين من أعظم الأسباب المعينة على العبادات والقيام بالمشروعات والإقدام على الأمر بالمعروف وإنكار المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى ؛ وذلك إن اليقين يمنع ورود الشهوات والشبهات على القلوب، ويدفع عن النفس ما قد تجده من ثقل أو صعوبة في بعض العبادات، يقول ابن القيم: " والقلب متى استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه... زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون، ولان له ما استوعره المترفون " (مفتاح دار السعادة) .

ويقول الحسن البصري: " ما طلبت الجنة إلا باليقين، ولا هرب من النار إلا باليقين، ولا صبر على الحق إلا باليقين " (فتح الباري لابن رجب) .

ويقول سفيان الثوري: " لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطارت القلوب اشتياقًا إلى الجنة وخوفًا من النار "(فتح الباري لابن رجب، وسير أعلام النبلاء) .

٥- اليقين من أسباب انشراح الصدر وسلامة النفس من الخوف والقلق والتردد، فاليقين يعين على الصبر والاحتساب والرضا بالقضاء والقدر، ويدفع عن القلب الوساوس والخواطر السيئة .

قال تعالى: "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ " (التغابن: ١١) فاليقين – كما يقول ابن القيم – من أفضل مواهب الرب لعبده ؛ إذ لا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين، يقول ابن مسعود في تفسير الآية السابقة: " هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم " يقول ابن القيم: " فهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه " (انظر: مفتاح دار السعادة) .

ويقول ابن رجب: " فمن حقق اليقين وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاء وخوفًا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة " (جامع العلوم والحكم) .

وتأمل قصة مسارعة أبي بكر الصديق إلى تصديق الرسول ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج، فإن فيها من العبر اليقينية الشيء العظيم ؛ فإنه «لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضى الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم ؛ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة ؛ فلذلك سُمي أبو بكر: الصدِّيق»(أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: " صحيح الإسناد " ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة) .

هذه بعض الثمرات والآثار الحسنة على من تحلى بقوة اليقين، واعتنى بترقيته ومداومة مراجعته في نفسه .

إنها ثمرات عظيمة فلا تفوتك أخي المسلم، فالوصول إليها سهل ميسور لمن علم الله منه صدق الإخلاص والمتابعة وتحري الحق .

اثر التمسك بالسنة في تزكية النفس

التزكية مقصد من مقاصد بعثة الرسل عموما، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم" انتهى.

وهي غاية من غايات بعثة النبي ﷺ على وجه الخصوص كما قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)، فهو يزكيهم بمعنى: يدلهم على ما تزكو به نفوسهم، وليس هو فاعل التزكية فيهم، (ولكن الله يزكي من يشاء).

وقد حاز النبي ﷺ على التزكية الربانية في إيمانه وعبادته وخلقه، فأرسله الله لتزكية هذه الأمة، وتطهير النفوس من دسائسها وأمراضها، وملئها بكل خصال الطهر والنقاء، وقد كان ذلك في أصحابه رضوان الله عليهم، الذين تحقق فيهم هذا المقصد العظيم بأبهى صوره، حيث عمل فيهم النبي ﷺ على مسارات التزكية الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، فكانوا صفوة لا تتكرر، وبقيت الأمة تتوارث منهجهم في التزكية، وعلى قدر قرب الأمة وبعدها من هذه القدوات يكون موقعهم من هذا المقصد العظيم (التزكية).

ومفهوم التزكية كما يرى ابن تيميه في الفتاوى: (تكون بعمل الصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير).

ويمكن القول بأن تزكية النفس: عبارة عن تخلية النفس من العيوب والرذائل والآفات الظاهرة والباطنة، وتحليتها بالفضائل، والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضى الله عز وجل، وتحقيق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا، والفلاح والنجاة في الآخرة.

وإذا كانت التزكية أحد مقاصد بعثة النبي ﷺ، فإننا سنجد ذلك مبثوثا في صفحات السنة النبوية، وهذه بعض الإشارات التي تبرز هذا المقصد لا على جهة الاستيعاب:

مقصد التزكية في الدعاء النبوي:

مطلب التزكية ظاهر في دعائه المأثور، فكان من دعائه ﷺ كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

ومن الأدعية التي يبرز فيها مقصد تزكية النفس حديث عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: ((يا حُصَينُ، كم تَعبُد اليوم إلهًا؟ قال: سبعة: سِتَّة في الأرض، وواحدًا في السماء، قال: فأيهم تعدُّ لرهبتك ورغبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: يا حصينُ، أمَا إنك لو أسلمتَ عَلَّمْتُك كلمتين تنفَعَانِك))، قال: فلما أسلم حُصين، جاء فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني الكلمتين اللتين وعدتني، قال: ((قل: اللهمَّ ألهِمني رُشدي، وأعِذْني من شرِّ نفسي))؛ أخرجه الترمذي.

التخلية قبل التحلية:

من قواعد التزكية المشهورة التي تجلت في النصوص النبوية قاعدة: (التخلية قبل التحلية)، بمعنى: تخلية النفوس من العيوب والآفات، ومن ثم تحليتها بالفضائل، والخصال الحسنة، وقد عمل النبي ﷺ على تخليص أصحابه من أدران الجاهلية، وهذا يعتبر الركن الأول من أركان التزكية، ويدل على ذلك على سبيل المثال:

حديث المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها. فسألته عن ذلك؟ فذكر أنه ساب رجلًا على عهد رسول الله – ﷺ – فعيره بأمه، فأتى الرجل النبي – ﷺ – فذكر ذلك له. فقال النبي – ﷺ –: (إنك امرؤ فيك جاهلية).

والمعنى: قد بقي فيك من اخلاق القوم شيء. كما قال ابن هبيرة في الإفصاح، وقد وصل أبو ذر إلى هذا المقام من التخلي عن كل أمر يمكن أن يوصف بأنه جاهلية، حتى أنه ألبس غلامه حلة كحلته، وهذا يدلنا على الأثر البالغ الذي تركته عبارة التزكية في نفسه، حين قال له النبي ﷺ: (إنك امرؤ فيك جاهلية).

ومن التخلية: النهي عن الغضب، فهو بوابة للشرور، ومفتاح للظلم والعدوان، كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مرارا، قال: «لا تغضب».

ومن التخلية: نزع حب الفواحش، وما اعتادوا عليه من مقارفة الآثام من نفوسهم، كما في مسند أحمد بإسناد صحيح، عن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: " ادنه، فدنا منه قريبا "، قال: فجلس قال: " أتحبه لأمك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم "، قال: " أفتحبه لابنتك؟ " قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: " ولا الناس يحبونه لبناتهم "، قال: " أفتحبه لأختك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لأخواتهم "، قال: " أفتحبه لعمتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لعماتهم"، قال: " أفتحبه لخالتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لخالاتهم "، قال: فوضع يده عليه وقال: " اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه " قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

فهذا وغيره مما يعزز الركن الأول من التزكية، وهو التخلية من الآفات والأمراض والخبائث، وتطهير النفس من العيوب والآفات المدنسة، وهذا في السنة مما لا يقع تحت الحصر، ومن أبرز ما ورد في السنة المطهرة تخلية النفس عن: (الشرك، والرياء، وحب الجاه، وحب الدنيا، والهوى، والحسد، والكبر، والشح، والغرور، وحب الرياسة، والحمية للنفس، والغضب، والتسويف، والإسراف، والغيبة، والعلو، والطمع، والهلع، والتقصير)، ولا تخفى النصوص النبوية الواردة في النهي عن هذه الآفات، والحث على تطهير النفس منها، وسبل الهدي النبوي في تخليص الناس منها.

الركن الثاني: التحلية بالفضائل، والسمو بالنفس إلى كل خير وعمل صالح، فيدخل في هذا النصوص النبوية الآمرة بكل خير مما يتصل بالإيمان، والعبادة، والأخلاق، فكل هذا هو سلم التزكية، والوصول بالنفس إلى منازل المخلَصين، وملكوت الطائعين.

ومن جوامع هذا الباب: حديث أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة، فاعمل حسنة تمحها» رواه الترمذي وغيره وحسنه الألباني، وقول النبي ﷺ لأشج عبد القيس: " إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة " رواه مسلم.

وقد بين النبي ﷺ آثار الذنوب على القلوب والنفوس في تدسيتها، وآثار الطاعات والفضائل في تزكيتها، بمثل مضروب يقرب المعنى بألطف عبارة، كما في صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه».

أليات التزكية:

وأما طرق التزكية فإننا نلمح من النصوص النبوية المبثوثة آليات يستعملها المسلم في تزكية نفسه، مثل: مجاهدة النفس، وإصلاحها، ومحاسبتها، والاجتهاد في العبادات، ودوام مراقبة الله، وتذكر الموت، وقصر الأمل، وترك المحرمات، وفعل الواجبات، والمبادرة إلى التوبة، ولزوم الاستغفار، والنصوص في هذا كثيرة، والمقصود هو الإشارة إلى حضور مقصد التزكية في السنة النبوية، فيكون الوعي بهذا المقصد مصاحبا للقارئ والمطلع في السنة النبوية، فيعظم الانتفاع أكثر من القراءة المجردة.

اثر الصدقة في تزكية النفس

الصدقة من أعظم أسباب سلامة الصدر؛ لأن الصدقة تطهر القلب وتزكي النفس، كما قال سبحانه: ﴿خُذ مِن أَموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكّيهِم بِها﴾ فمن حكم تشريع الزكاة والصدقات تطهير النفس من الحقد والغل والحسد والكراهية، وملء القلب بمحبة المسلمين

تُعرَّف الصدقة في اللغة بأنّها: ما يُبذَل تقرُّباً لله -تعالى-، وأصل تسميتها بهذا الاسم أنّ بَذلها يكون دلالة على صِدق نيّة مُعطيها، وهي تُطلَق بمعناها الشامل على الزكاة وصدقات التطوُّع، فيقال للزكاة صدقة، قال -تعالى-: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ}.

ويُقال لما يُبذَل تطوُّعاً صدقة.

أمّا معناها في الاصطلاح فهو: ما يُبذَل على وجه التقرُّب لله -تعالى- في الحياة دون عِوض أو مقابل بحيث تكون مُلكاً لآخذها، ويُطلق اسم (الصدقة) في الأصل والغالب على ما يُبذَل تطوُّعاً، أمّا ما يتوجّب بَذله فيُطلَق عليه مُسمّى (الزكاة)، وقد أُطلِق لفظ الصدقة أيضاً على كلّ ما يُبذَل من الهِبات بنيّة تحصيل ثواب الآخرة، ويُعرَف كلّ ما يبقى أثره وثوابه بعد الممات بالصدقة الجارية. وقد تكون الصدقة الجارية من قِبل الإنسان نفسه؛ حيث يبذلها في حياته ليبقى له أجرها بعد مماته، وقد تُبذل الصدقة الجارية من قِبل شخص آخر بنيّة إهداء ثوابها للميت، وأصل مشروعيّة الصدقة الجارية قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((إذا ماتَ الإنسانُ انقَطعَ عنه عملُهُ إلَّا من ثلاثٍ: صَدقةٌ جاريةٌ، وعِلمٌ يُنتَفعُ بِهِ، وولدٌ صالِحٌ يدعو لَهُ)).

وفي الإسلام الصدقة الجارية هي كل عمل يبقى نافعا للبشرية حتى بعد موت صاحبه، بمعنى آخر من ترك عملا نافعا للبشرية يبقى مأجورا عليه حتى بعد وفاته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ)).

وقال الله تعالى:﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وتكمن اهميتها في كونها تدفع مِيتة السوء وهي الميتة التي تكون على معصية الله -تعالى-، وفي الحديث: ((إنَّ الصدقةَ لَتُطْفِئُ غضبَ الربّ، وتَدْفَعُ مِيتةَ السُّوءِ)).

وكذلك الوقاية من أهوال يوم القيامة قال تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} إلى أن قال -تعالى-: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}.

ومنها تزكية النفس وتطهيرها من السيّئات قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ}.

وللصدقة الجارية أهمّية في الحياة الدنيا من الناحية الصحّية، والنفسية، والاجتماعية، وذلك انشراح الصدر، وراحة القلب؛ فالمُتصدِّقون أوسع الناس صدراً، وأحسنهم خُلقاً.

وزيادة الرزق ونماؤه، وتحقيق التراحم بين الناس، وإشاعة روح التكافل الاجتماعي بينهم.

وحلّ مشكلة الفقر في المجتمع. سبب في جَلب محَبّة الناس. دفع البلايا والشرور والمهالك عن المجتمع؛ فالصدقة تقي النفس من الشحّ الذي أهلك الأمم السابقة، وتقي الإنسان من الكَرب، وتدفع الأمراض والبلايا، وفي الحديث: ((داووا مرضاكم بالصدقة)). فضلاً عن تقوية الدين ونصرته.

وأفضل صور الصدقة هي سقاية الماء فهي من أفضل الصدقات عند الله؛ لما جاء في الحديث النبويّ عن سعد بن عبادة أنّه قال: ((يا رسولَ اللهِ ! إنَّ أمي ماتت، أفأتصدقُ عنها؟ قال: نعم، قلتُ: فأيُّ الصدقةِ أفضلُ؟ قال: سقْيُ الماءِ)، والعِبرة ليست في السُّقيا فقط، وإنّما في كلّ شيء يحتاج إليه الناس.

وأخيراً نذكر ما قاله الإمام الصادق (عليه السلام):

((لا تتصدق على أعين الناس ليزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإن الذي تتصدق له سرا يجزيك علانية)) .

جعلنا وإياكم من المتصدقين إلى يوم الدين.

أثر التقوى في تزكية النفس

وتزكية النفوس هي ثمرة التقوى، ويشهد لذلك قول الله عز وجل: {فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم:٣٢]، فهذه الآية نص صريح على أن التزكية هي التقوى.

وقال الله عز وجل: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الليل:١٧ – ١٨].

وقال الله عز وجل: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس:٧ – ٩].

وحديث الرسول ﷺ أيضاً ينص على أن التقوى هي التزكية، كما في قوله ﷺ: (اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: النفس تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات.

وترك المحرمات مع فعل المأمورات هي التقوى.

وقال ابن عيينة وقتادة في قول الله عز وجل: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} [الأعلى:١٤]: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال.

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: زكاها أي: طهرها من الذنوب والمعاصي

وهذه المنزلة كبيرة لا تدرك إلا بتزكية النفس كما أخبر الحق سبحانه بقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١] وقوله جل شأنه {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} [الأعلى: ١٤]

فدلت الآيات على أن تزكية النفس موجبة للفلاح في الدنيا والآخرة.

التقوى» – في أبسط صورها – أن يفعل المسلم ما أمره الله به، ويجتنب المحارم، مخلصًا لله تعالى محتسبًا أجره على الله، ومتابعًا في ذلك للنبي ﷺ.

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله –:

« التقوى اسم مأخوذ من الوقاية، وهو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله. والذي يقيك من عذاب الله هو فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه، فإن هذا هو الذي يقي من عذاب الله عزَّ وجلَّ، أن تأخذ أوامر الله وأن تترك ما نهي عنه»[1].

وقد أشار العلامة الفيروزآبادي في كتاب "بصائر ذويي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" إلى آثار التقوى وثمراتها وفوائدها التي ورد ذكرها في كتاب الله عزَّ وجلَّ، فقال – رحمه الله –:

«وأَمّا البِشَارَات الَّتي بشَّر الله تعالى بها الْمُتَّقِين في القرآن ف:

الأَوّل: البشرى بالكرامات؛ ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ البشرى ﴾ [يونس: ٦٣، ٦٤].

الثاني: البشرى بالعون والنّصرة؛ ﴿ إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا ﴾ [النحل: ١٢٨].

الثَّالث: بالعلم والحكمة؛ ﴿ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

الرّابع: بكفَّارة الذّنوب وتعظيمه؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

السّادس: بالمغفرة؛ ﴿ واتقوا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٩].

السّابع: اليُسْر والسّهولة في الأَمر؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

الثَّامن: الخروج من الغمّ والمِحنةِ؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢].

التَّاسع: رزق واسع، بأَمن وفراغ؛ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٣].

العاشر: النَّجاة من العذاب، والعقوبة؛ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ [مريم: ٧٢].

الحادي عشر: الفوز بالمراد؛ ﴿ وَيُنَجِّي الله الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ [الزمر: ٦١]، ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ: ٣١].

---

[1] « شرح رياض الصالحين» (١/ ٥١٣).

الثاني عشر: التَّوفيق والعصمة؛ ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الثالث عشر: الشهادة لهم بالصدق؛ ﴿ أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الرابع عشر: بشارة الكرامة والأكرمية؛ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الخامس عشر: بشارة المحبّ؛ ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾ [التوبة: ٤].

السّادس عشر: الفلاح؛ ﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

السّابع عشر: نيل الوصال، والقُربة؛ ﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

الثامن عشر: نيل الجزاء بالمحنة؛ ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [يوسف: ٩٠].

التَّاسع عشر: قبول الصّدقة؛ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

العشرون: الصّفاء والصّفوة؛ ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج: ٣٢].

الحادي والعشرون: كمال العبودية؛ ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

الثاني والعشرون: الجنّات والعيون؛ ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥]، [الذاريات: ١٥].

الثالث والعشرون: الأَمْن من البليّة؛ ﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١].

الرابع والعشرون: عزّ الفوقيّة على الخَلْق؛ ﴿ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [البقرة: ٢١٢].

الخامس والعشرون: زوال الخوف والحزن من العقوبة؛ ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥].

السادس والعشرون: الأَزواج الموافِقة؛ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾، إلى قوله: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النبأ:٣١].

السّابع والعشرون: قُرب الحضرة، واللّقاءِ والرّؤية؛ ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]»[1].

وصلى الله وسلم على سيدِ ولد آدم وأهلِه وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

(1) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٣٠١ - ٣٠٣).

أثر الكلمة الطيبة لا إله إلا الله في تزكية النفس

إن لكلمة لا إله إلا الله آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ، وفي تزكية النفس منها

١- أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

٢- أن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومن ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سبحانه، فلا يطأطِئُ الرأسَ أمامَ أحد من الخلق، ولا يتضرّعُ إلا إليه، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلا من كبريائه وعظمته، لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣- ينشأ من هذه الكلمة، تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٍ من غير كِبْرٍ.

٤- المؤمن بهذه الكلمة، يعلم علم اليقين أنّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار، فإنّهم يقضون حياتهم في آمال كاذبة؛ فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُلِبَ كفارةً لذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا. ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته، زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله، فيعتقدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا، غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته، وهو عبدهما.

٥- قائل هذه الكلمة لا يتسرّب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنَّه يؤمنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

٦- الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والأقدام، والصّبر والثبات والتوكّل، حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله، إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخهُ وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور، كالجبال الراسية، فمن أين للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

٧- هذه الكلمة تشجعُ الإنسان، وتملأ قلبه جرأةً، لأن الذي يجبّنُ الإنسان ويوهنُ عزمه شيئان:

–حبه للنفس والمال والأهل.

–واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرء بـ لا إله إلا الله ينزعُ من قلبه الأولَ وهو: "حبّه للنفس والمال والأهل"، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غال ونفيس عنده، كما ينزع الثاني وهو: "اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان" بأن يلقِي في روعهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجله، من أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرّصاص، ولا وابلُ القنابل.

٨- الإيمان بـ لا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشّره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

٩- الإيمان بـ لا إله إلا الله يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظة عليه، فإنَّ المؤمن يعتقِدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشٍ أيِّ كانَ، فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ اللهِ عزّ وجلّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودهِ، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّم الله، ويسارعُ إلى الخيراتِ والعمل بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ لا إله إلا الله هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس.

مراجع:

- أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط ٣ ١٩٦١، ص ٨٧.

عشر نصائح مهمة لمن أراد تزكية النفس بصدق وإخلاص وتجرد

تزكية النفس هو علم عمليٌّ ضروري لكل مسلم، يختص بتطهير النفس والقلب من الأمراض والرذائل، التي تمنعها من الله والوصول إلى الدرجات العلا عنده؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال أيضًا: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ – ٨٩]، وذلك بالتطبيق العملي لآيات القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، وقد انتقيت عشرَ وصايا مهمة، من تفكُّري في معاني كتاب الله وسنة رسوله، وحِكَمِ علمائنا وآيات ربنا الكونية في خلقه، وهي على اختصارها وقِصَرِها، أسأل الله أن يصل نفعها لكل مسلم، يريد إصلاح أحوال نفسه وغيره.

الوصية الأولى: ينبغي للمسلم أن يعالج نيته قبل كل قول أو فعل، ويراقبها أثناء ذلك، يريد بها مرضاة الله وثوابه وأجره؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال رسول الله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصِيبها أو امرأة ينكِحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)).

الوصية الثانية: ينبغي لطالب العلم أن يوازِنَ بين علوم الآلة، وعلم تزكية النفس؛ لأنه إذا أهمل الثاني، قسا قلبه، ومرِض بالعُجب، والكِبر، والحسد، وحب الرئاسة والظهور، فعلوم الآلة هي لتصحيح الفهم للدين، وعلم التزكية هو لإصلاح العلاقة بين العبد وربِّهِ.

الوصية الثالثة: ينبغي للمسلم أن يكون دائمَ النظر بقلبه لربِّهِ، مستغنيًا به عن غيره، ولا ينظر إلى الخلق، إلا من نافذة طاعة ربه؛ أي: يتعامل مع الخلق بما يُرضي ربَّه.

الوصية الرابعة: ينبغي للمسلم أن يكون دائم التعظيم للآخرة، دائم التحقير للدنيا، لا يريدها إلا في مرضاة محبوبه سبحانه؛ قال رسول الله ﷺ: ((ازهد في الدنيا، يُحِبَّك الله)).

الوصية الخامسة: ينبغي للمسلم أن يشغل أغلب وقته بالله، وينوّع في الطاعات؛ حتى لا يَمَلَّ، يتجول طيلة يومه بين أزهار وورود الطاعات.

الوصية السادسة: ينبغي للمسلم أن تكون له خلوة بربه في كل يوم، يذكره فيها سبحانه، يدعوه ويتفكر في أحواله وذنوبه وعيوبه، يلتمس الدواء الشافي لنفسه، وأن تكون تلك الخلوة أسعدَ أوقات يومه.

الوصية السابعة: ينبغي للمسلم أن يكون معطاءً جوادًا كريمًا، خدومًا مصلحًا متخلقًا محسنًا للخَلْقِ؛ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

الوصية الثامنة: ينبغي للمسلم أن يكون ناصحًا لإخوانه بالحكمة والستر، والموعظة الحسنة والصدق، ولا يذكر عيوب المنصوح إلا للمُعِين على النصح.

الوصية التاسعة: ينبغي للمسلم ألَّا يصاحب إلا صِنفين؛ صالحًا يستفيد من علمه وصلاحه، أو مريضًا معترفًا بمرضه يريد دواءه، أما المريض الذي لا يعترف بمرضه، فيجب أن يبتعد عنه؛ حتى لا يعديه بدائه؛ يقول النبي ﷺ: ((لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ)).

الوصية العاشرة: ينبغي للمسلم أن يصبر على أذى الناس، ويحتسب الأجر عند الله، ويكون مثل النخلة؛ ترميه بالحجر، ويعطيك التمر؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

خاتمة: وفي الأخير أسأل الله تعالى القَبول والتوفيق، للعمل بهذه الوصايا المختصرة، فمن وجد خطأً، فلينصحني وليستغفر لي الله، ومن انتفع بها، فليدعُ لي ولوالديَّ ولشيوخي وأحبائي بالرحمة والخير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد مربي العالمين، وعلى آله وصحبه، وأتباعه أجمعين

اثر قيام الليل في تزكية النفس

قيام الليل سبب تزكية النفس

فلا شك أن قيام الليل من أفضل القربات وأعظم الطاعات، ومن أهم الوسائل لتزكية النفس وشكر الله تعالى على نعمه وحصول ثوابه. فقد فرض في بداية الإسلام لتربية النفوس وتزكيتها، ولما نسخ فرضه طاف ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت النحل لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة، ولذلك بقي قيام الليل دأب الصالحين وطريقة الموفقين الطائعين، وسنة متبعة عن خاتم الأنبياء والمرسلين من أحياها أحيا الله قلبه ونور بصيرته وبيض وجهه وثبت قدمه، فقد كان ﷺ يقوم حتى تتورم قدماه أو ساقاه فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا.

اهمية تزكية النفوس

١-تتجلَّى أهميةُ هذا الموضوع من خلال الأمورِ التالية:

١– أهتمَّ السلفُ الصالحُ بتزكية النفوس، واعتنوا بالأخلاق علماً وفقهاً، كما حقَّقوهُ عملاً وهدياً، فأفردوا كتباً مستقلةً في الزهد والرقائق، بل أنهم يوردون الصفات الأخلاقية في ثنايا كتب العقيدة:

وممَّا يُبينُ أهمية الموضوع:

٢–أن هناك تلازمٌ بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهرُ مرتبطٌ بالاعتقادِ الباطن، فأيُّ انحرافٍ في الأخلاقِ إنما هو من نقص الإيمان الباطن،

قال ابنُ تيميه رحمه الله (إذا نقصت الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ، كانَ ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلاُ يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب، أن تُعدم الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ

٣– وتأتي أهمية الموضوُع إذا علمنا: ما يترتبُ على تحقيقِ الجانبِ الخُلُقي من الأجر الكثير والثوابِ الجزيل:

قال الله تعالى (أُعدّت للمتقين الذين ينفقُون في السرّاءِ والضرّاءِ، والكاظمين الغيظ)آل عمران ١٣٣ .،

قال ﷺ " أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهُم خُلقاً " أحمد وأبو داود والترمذي .

وقال " إنَّ المؤمنَ ليُدركْ بحُسنِ خلقُه درجات الصائمِ القائمِ " أحمد وأبو داود

وقال " ما من شيءً يوضعُ في الميزان أثقلُ من حسن الخلق " أحمد وأبو داود والترمذي

وقال ابنُ القيمّ (الدينُ كلُّه خُلُقٌ، فمن زاد عليك في الخُلقِ زاد عليك في الدين) مدارج السالكين ٣٠٧/٢ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: "كان رسول الله – ﷺ – يصلى ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة "[١] .

وفى الخبر إنه ذكر عنده الرجل ينام كل الليل حتى يصبح فيقال – ﷺ –: " ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه "[٢].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله – ﷺ –: " يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان "[٣].

الآثار

كان ابن مسعود – رضي الله عنه – إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويّ كدويّ النحل حتى يصبح.

---

[١] رواه البخاري (٣/ ٧) التهجد، ومسلم (٦/ ١٦)، الصلاة.
[٢] رواه البخاري (٣/ ٣٤) التهجد، ومسلم (٦/ ٦٣، ٦٤) صلاة المسافرين.
[٣] رواه البخاري (٣/ ٣٠) التهجد، ومسلم (٦/ ٦٥، ٦٦) صلاة المسافرين.

قيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ قال: " لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره ".

وقال: " إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ".

وقال رجل لأحد الصالحين: لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواءاً، فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل.

الأسباب المعينة على قيام الليل

١) صدْق النيَّة، والعزم على القيام، ومُجاهَدة النفس في ذلك:

وهذا مِن أعظم الأسباب؛ فإنَّ الله تعالى إذا علم مِن عَبدِه الصدق، أعطاه فوق ما يُريد؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

ومَن أراد شيئًا وأحبه سعى في نيله، واجتهد في تحصيله؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

فكل من صدق الله صدَقَه الله؛ فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن سأل الله الشهادة بصدْق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه))[١] ؛ رواه مسلم.

يا رجال الليل جدُّوا *** ربَّ داعٍ لا يُردُّ

ما يقومُ الليلَ إلا ***مَن له عزمٌ وجدُّ[٢]

٢) التبكير بالنوم، وتعاطي أسباب الاستيقاظ:

فعن عبدالله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وكان يَنام نصف الليل، ويقوم ثلثَه، ويَنام سدسه، ويصوم يومًا، ويُفطر يومًا))[٣]؛ رواه الشيخان.

---

(١) رواه مسلم في الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم: (١٩٠٩)، وله عن أنس رضي الله عنه: "مَن طلب الشهادة صادقًا أُعطيها ولو لم تصبه"، رقم: (١٩٠٨).

(٢) "لطائف المعارف" (ص: ٤٤٠).

(٣) رواه البخاري - واللفظ له - في التهجد، باب من نام عند السحر، رقم: (١١٣١)، ورواه مسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...، رقم: (١١٥٩).

وفي الصحيحَين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بتُّ عند خالتي مَيمونة فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقَدَ،..."[1] الحديث.

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يؤخِّر العشاء إلى ثلُث الليل، ويكره النوم قبلها، والحديث بعدها...[2] الحديث؛ رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين قفَل من غزوة خيبر، سار ليله حتى إذا أدركه الكرى عرس[3]، وقال لبلال: ((اكلأ لنا الليل))[4]؛ رواه مسلم.

قال الإمام النووي رحمه الله: "((اكلأ لنا الفجر))؛ أي: ارقبه، واحفظه، واحرسه"[5].

٣) الوضوء قبل النوم، والمحافظة على أذكار النوم:

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((إذا أتيتَ مضجعَك، فتوضَّأ وضوءَك للصلاة، ثم اضطجِع على شقِّك الأيمن، ثم قل: اللهمَّ أسلمتُ وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظَهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا مَنجا منك إلا إليك، اللهمَّ آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلتَ، فإن متَّ مِن ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهنَّ آخِرَ ما تتكلم به))، قال: فرددتُها على النبي ﷺ، فلما بلغتُ: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: ((لا، ونبيِّك الذي أرسلتَ))[6]؛ رواه الشيخان.

وعنه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: ((اللهم أسلمت نفسي إليك...))[7]؛ رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفَث في كفيه بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وبالمعوِّذتَين جميعًا، ثم يَمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه مِن جسده[8]؛ رواه البخاري.

---

[1] رواه البخاري في التفسير، باب ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، رقم: (٤٥٦٩)، ورواه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: (٧٦٣).

[2] رواه البخاري في مواقيت الصلاة، باب ما يُكره من السمر بعد العشاء، رقم: (٥٩٩)، ورواه مسلم - واللفظ له - في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، رقم: (٦٤٧).

[3] قال في "الصحاح": "الكرى: النعاس" (ص: ٢٤٢٧)، "والتعريس: نزول القوم في السفر من آخر الليل، يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم يرتحلون" (ص: ٢٢٤٢).

[4] رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم: (٦٨٠).

[5] "شرح مسلم" (٥ / ١٨٢).

[6] رواه البخاري، واللفظ له، في الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم: (٢٤٧)، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم: (٢٧١٠).

[7] حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: رواه البخاري في الدعوات، باب النوم على الشق الأيمن، رقم: (٦٣١٥).

[8] رواه البخاري في الطب، باب النفث في الرقية، رقم: (٥٧٤٨).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((إذا جاء أحدُكم فِراشه فلينفضه بصَنِفة[١] ثوبه ثلاث مرات، وليقلْ: باسمك رب وضعتُ جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))[٢].

وفي الصحيحَين عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الآيتان مِن آخر سورة البقرة مَن قرأهما في ليلة كفتاه))[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكَّلَني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ.... فقص الحديث، فقال: إذا أويتَ إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يَقربك شيطان حتى تُصبح، وقال النبي ﷺ: ((صدقك، وهو كذوب؛ ذاك شيطان))[٤]؛ رواه البخاري.

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها شكت ما تلقى من أثر الرَّحا، فأتى النبي ﷺ سبيٌ، فانطلقت فلم تجدْه، فوجدت عائشة فأخبرَتْها، فلما جاء النبي ﷺ، أخبرته عائشة بمَجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذْنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال: ((على مكانكما))، فقعَد بيننا، حتى وجدت بردَ قدميه على صدري، وقال: ((ألا أُعلِّمُكما خيرًا مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجِعَكما، تُكبِّرا أربعًا وثلاثين، وتسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، وتَحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم))[٥].

٤) ذكر الله عند الانتباه:

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَن تعارَّ من الليل[٦]، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قديرٌ، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهمَّ اغفر لي، أو دعا، استُجيب له، فإن توضَّأ وصلى قُبلتْ صلاته))[٧]؛ رواه البخاري.

---

[١] "صنفه الإزار - بكسر النون -: طرفه مما يلي طرَّته"، "النهاية في غريب الحديث" (ص: ٥٢٨).

[٢] رواه البخاري في التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم: (٧٣٩٣)، واللفظ له، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم: (٢٧١٤).

[٣] رواه البخاري في المغازي، باب، رقم: (٤٠٠٨)، ورواه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، رقم: (٨٠٧).

[٤] رواه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل البقرة، رقم: (٥٠١٠).

[٥] رواه البخاري في المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم: (٣٧٠٥)، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم: (٢٧٢٧).

[٦] "من تعارَّ من الليل؛ أي: هبَّ من نومه واستيقظ"؛ "النهاية في غريب الحديث" (ص: ١٠٨).

[٧] رواه البخاري في التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى، رقم: (١١٥٤).

٥) المبادرة إلى ذكر الله – عز وجل – حين الاستيقاظ، والتأسِّي به ﷺ في هيئة النوم:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((يَعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يُضرب كل عقدة مكانها، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقَظَ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضَّأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلَّت عُقَدُه كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان))[١]؛ رواه البخاري.

وفي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجَعه مِن الليل، وضع يدَه تحت خدِّه، ثم يقول: ((اللهمَّ باسمك أموتُ وأحيا))، وإذا استيقظ، قال: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشور))[٢].

وفي حديث البراء: ((ثم اضجِعْ على شقك الأيمن))[٣]؛ رواه الشيخان.

٦) المبادرة إلى التخلُّص من آثار الشيطان بالاستِنثار، وغسل الكفين ثلاثًا:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إذا استيقَظَ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاث مرات؛ فإن الشيطان يبيت على خياشيمه))[٤]؛ رواه البخاري ومسلم.

وظاهر هذه الرِّواية أن الأمر بالاستنثار – هنا – غير الأمر بالاستنثار حال الوضوء، وعلى هذا يُشرع الاستنثار ولو لم يَرِد وضوءًا، والله أعلم.

وفي الصحيحين عنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا توضأ أحدكم، فليجعل في أنفه، ثم لينثر، ومَن استجمر فليُوتر، وإذا استيقظ أحدكم من نومه، فليغسل يده قبل أن يُدخلها في وَضوئه، فإنَّ أحدكم لا يدري أين باتتْ يده))[٥].

٧) ترك المعاصي والآثام:

---

[١] رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم: (٣٢٦٩).
[٢] رواه البخاري في الدعوات، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن، رقم: (٦٣١٤)، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم: (٢٧١١).
[٣] "سبق تخريجه" (ص: ٣٩).
[٤] رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم: (٣٢٩٥)، ورواه مسلم، واللفظ له، في الطهارة، باب الإيتار في الاستنثار والاستجمار، رقم: (٢٣٨).
[٥] رواه البخاري، واللفظ له، في كتاب الوضوء، باب الاستجمار وترًا، رقم: (١٦٢)، ورواه مسلم في الطهارة، باب الإيثار في الاستنثار والاستجمار، رقم: (٢٣٧).

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يزيد في العمر إلا البرُّ، ولا يردُّ القدَرَ إلا الدعاء، وإن الرجل ليُحرَم الرزق بالذنب يُصيبه))[1] رواه أحمد، وابن ماجه.

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: "مَن أحسن في نهاره كُوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره"[2].

وأخبر – سبحانه – أن مَن اتقاه جعل له مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وأي رزق أجلُّ من الإعانة على طاعة الله ومرضاته؟!

وقال الحسنُ: "إنَّ العبد ليُذنب الذنب؛ فيُحرم به قيام الليل"، وقال الفُضَيل: "إذا لم تَقدر على قيام الليل وصيام النهار؛ فاعلم أنك محرومٌ مكبَّلٌ، كبَّلتْك خطيئتُك"[3].

٨) التقلُّل من الأكل والشرب:

فإن مَن أثقلَ معدته بالطعام ثَقُل عليه القيام، وهذا أمر معروف، وفي الحديث: ((ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشَرابه، وثلُثٌ لنفَسِه))[4]، وكان بعضهم يقول: مَن أكل كثيرًا، نام كثيرًا، فخسر كثيرًا.

٩) أن يكون همُّ الآخرة هو الغالب على قلبِه:

فإن المُستغرق في هُموم الدنيا يصعب عليه القيام، وإن قام كانت صلاته بلا قلب.

يُخبرني البواب أنك نائمٌ *** وأنت إذا استيقظتَ أيضًا فنائمُ[5]

١٠) التفكُّر في أهوال الآخرة، مع قصر الأمل:

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]، قال ذو النون المصري رحمه الله:

منع القُرانُ بوعده ووعيدِه ***مُقلَ العيون بلَيلها أن تهجَعا

فَهِموا عن المَلِك الجليل كلامه ***فرقابُهم ذلَّت إليه تخضُّعا[1]

---

[1] رواه أحمد (٣٧ / ٦٨) رقم: (٢٢٣٨٦)، ورواه ابن ماجه في الفتن، باب العقوبات، رقم: (٤٠٢٢) - قال الشيخ الألباني: "حسن، دون قوله: وإن الرجل..".

[2] "البداية والنهاية" (١٤ / ١٤٨).

[3] "لطائف المعارف" (ص: ١١٩).

[4] حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه: رواه أحمد (٢٨ / ٤٢٢) رقم: (١٧١٨٦)، والترمذي، واللفظ له، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم: (٢٣٨٠)، وقال: "حسن صحيح"، وصححه الألباني.

[5] "إحياء علوم الدين" (١ / ٣٦٢).

وقال ابن المبارك رحمه الله:

إذا ما الليل أظلم كابَدوه ***فيُسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ

أطار الخوف نومَهم فقاموا ***وأهل الأمن في الدنيا هجوعُ

لهم تحت الظلام وهم سُجود ***أنينٌ منه تَنفرِج الضلوعُ

وخرسٌ بالنهار لطُول صمتٍ ***عليهم مِن سكينتهم خشوعُ[٢]

١١) معرفة فضل قيام الليل:

فإنَّ ذلك يُعينه على القيام، ويُهيِّجه على اللحاق بركب الصالحين وأولياء الله المتقين، لا سيَّما في زمن الفتن والهرج، وانشغال الناس عن العبادة؛ فعن معقل بن يسار رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: ((العبادة في الهرج[٣] كهجرة إليَّ))[٤]؛ رواه مسلم، وعند أحمد عنه رضي الله عنه: ((العبادة في الفتنة كالهجرة إليَّ))[٥].

قال الإمام النووي رحمه الله: "وسبب كثرة فضْل العبادة فيه أن الناس يَغفلون عنها، ويشتغلون عنها، ولا يتفرَّغ لها إلا أفراد"[٦].

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب جملةً صالحة من هذه الفضائل فلتُراجع هناك.

١٢) تحقيق محبة الله جل وعلا:

فإن العبد إذا أحب الله سبحانه وتعالى، أحبَّ الخلوة به، والتنعُّم بمناجاته ولذيذ خطابه، وأحوال المحبين في هذا المقام كثيرة مشهورة، قال علي بن بكار رحمه الله: "منذ أربعين سنة، ما أحزنَني شيء سوى طلوع الفجر".

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: "إذا غربت الشمس، فرحتُ بالظلام لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليَّ".

وقال أبو سليمان الداراني: "أهل الليل في ليلهم ألذُّ مِن أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاء في الدنيا".

---

(١) "المصدر السابق" (١ / ٣٦٣).
(٢) "المصدر السابق"، وينظر: "ديوان عبدالله بن المبارك" (ص: ١٤).
(٣) قال الإمام النووي رحمه الله: "المراد بالهرج - هنا - الفتنة واختلاط أمور الناس"، "شرح مسلم" (١٨ / ٨٨).
(٤) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج، رقم: (٢٩٤٨).
(٥) أحمد (٣٣ / ٤٢٤ - ٤٢٥) رقم: (٢٠٣١١) من حديث معقل بن يسار.
(٦) "شرح مسلم" (١٨ / ٨٨).

وقال بعض العلماء: "ليس في الدنيا وقتٌ يُشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يَجده أهل التملُّق في قلوبهم بالليل مِن حلاوة المُناجاة".

وقال بعضهم: "لذَّة المناجاة ليست من الدنيا، إنما هي من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه، ولا يَجدُها سواهم"؛ ا. هـ[1].

١٣) الدعاء والتضرع إلى الله:

وهو مِن أجلِّ الأسباب المعينة على قيام الليل، فإن الدعاء يُزيل من قلب العبد آفة الركون إلى نفسه، أو عمله، أو حاله، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بربه عز وجل مِن العجز والكسل؛ فإنهما "مفتاح كل شر، ويَصدُر عنهما الهم والحزَن، والجبْن والبُخل، وضلَع الدَّين، وغلَبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل"[2].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبْن والهرم، والبُخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومِن فتنة المحيا والممات"[3].

فلا أحد يَستغني عن ربه عز وجل مهما بلغ من العبادة، ولهذا كان نبيُّنا ﷺ يقول في دعائه: "اللهمَّ مُصرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا على طاعتك"[4].

وليحذر العبد من الأماني الفارغة فإنها: "أضرُّ شيء على الإنسان، وتتولَّد من العجز والكسل، وتُولِّد التفريط والحسرة والندم، والمتمني لما فاته مباشرة الحقيقة بحسِّه نَحتَ صورتها في قلبه، وعانَقَها وضمَّها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صوَّرها فكره، وذلك لا يُجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يُصوِّر في وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب، والسكون إلى ذلك واستحلاؤه يدل على خساسة النفس ووضاعتها"[5].

---

(١) "إحياء علوم الدين" (١ / ٣٦٣ - ٣٦٤).
(٢) "زاد المعاد" (٢ / ٣٢٦).
(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير، باب ما يُتعوذ من الجبن، رقم: (٢٨٢٣)، ورواه مسلم، واللفظ له، في الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، رقم: (٢٧٠٦).
(٤) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: رواه مسلم في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم: (٢٦٥٤).
(٥) "الداء والدواء" (ص: ٣٥٤ - ٣٥٥)

لماذا تزكية النفس

إنَّ أهم ما ينبغي للناس أن يتعاهدوه تزكية نفوسهم، ولا سيما في هذه الأزمان المتأخرة التي استحكمت فيها الشهوات، وارتطمت فيها أمواج الفتن والشبهات، والتي لم يسلم منها إلا من عصمه الله جل وعلا.

والمراد بتزكية النفس في الشرع هو: تطهير النفوس وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض حديثه عن أمراض القلوب وشفائها "وَالزَّكَاةُ فِي اللُّغَةِ: النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ فِي الصَّلَاحِ . يُقَالُ: زَكَا الشَّيْءُ إذَا نَمَا فِي الصَّلَاحِ، فَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَرَبَّى فَيَنْمُو وَيَزِيدُ حَتَّى يَكْمُلَ وَيَصْلُحَ كَمَا يَحْتَاجُ الْبَدَنُ أَنْ يُرَبَّى بِالْأَغْذِيَةِ الْمُصْلِحَةِ لَهُ وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ مَنْعِ مَا يَضُرُّهُ؛ فَلَا يَنْمُو الْبَدَنُ إلَّا بِإِعْطَاءِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَزْكُو فَيَنْمُو وَيَتِمُّ صَلَاحُهُ إلَّا بِحُصُولِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ وَكَذَلِكَ الزَّرْعُ لَا يَزْكُو إلَّا بِهَذَا"

وقد ثبت في تفسير التزكية عن عبد الله بن معاوية الغاضِري أن رسول الله قال "ثَلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ ..." وزاد في رواية "وَزَكَّى نَفْسَهُ"، فقال رجل: وما تزكية النفس؟، فقال "أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ"

لا بدَّ من العلم أن تزكية النفوس لا سبيل إليها إلا عن طريق الشرع المُطَهَّر باتباع ما جاءت به الرسل عن ربِّ العالمين جلَّ وعلا.

قال ابن القيم: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ..

قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟! .. فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان"

بعض اسرار العبادات

١)سر التوحيد في تزكية النفس

التوحيد .. وقد سماه الله تعالى زكاة في قوله تعالى {.. وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (*) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي – وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة – فإنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح، هو: التوحيد.

كما سمى الله تعالى الشرك رجسًا ووسمه بالنجاسة، قال تعالى {.. فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ..}، وقال {..إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ..}

فدل مفهوم الآيتين على أن الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله جلَّ وعلا.،

٢)سر الصلاة في تزكية النفس

الصلاة .. وهي من أعظم ما تزكو به النفوس؛ ولذلك قرن الله تعالى بينها وبين التزكية في قوله {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (*) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}

وقد شبه النبي تطهير الصلاة للنفوس بتطهير الماء للأبدان فعن أبي هريرة مرفوعًا "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟"، قالوا: لا، يبقى من درنه شيء، قال "فَذَلِكَ مَثل الصَّلَوَات الخَمْس يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا" [متفق عليه].

٣)سر الصدقة في تزكية النفس

الصدقة .. قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا..}

قال الشيخ السعدي "وفيها أن العبد لا يمكنه أن يتطهَّر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها" [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام

أثر النوافل في تزكية النفس

عندم يبادر العبد إلى الإكثار من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه، واغتنام الساعات الفاضلة في قيام الليل، ويجاهد نفسه على الخشوع والتدبر وحضور القلب، فإن ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى، وله آثار عظيمة في تزكية النفس وترقيتها في مقامات الكمال.

وتلك آثار النوافل في تزكية النفس.

١- المناجاة بين العبد وربه، والتحقق بمقام العبودية:

أعظم ما يظفر به العبد من آثار الذكر والدعاء والتلاوة أنه يُناجي ربه ويزداد منه تقربا ويتحقق بمقام العبودية الحقة التي تُعلي قدر صاحبها وتجعله في معية الله.

وهذا مصداق قول الحق سبحانه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة:١٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[١]

قال الحافظ الشوكاني رحمه الله:" قوله" وأنا معه حين يذكرني" فيه تصريح بأن الله سبحانه وتعالى مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليهم برحمته، ويمدهم بتوفيقه وتسديده، فإن قلت: هو مع جميع عباده، كما قال سبحانه: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤]، قلت: هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص، بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الإكرام له والتفضل عليه ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في الكتاب العزيز من كونه مع الصابرين وكونه مع الذين اتقوا"[٢].

ومن أعظم أنواع الذكر تلاوة القرآن الكريم، فمن أراد أن يناجي ربه فليقرأ القرآن، فهو كلام الله سبحانه، وكلما عظمت محبة الله في قلبك كان إقبالك على تلاوة كتابه أعظم، مع استحضار الخشية منه سبحانه، وتدبر القرآن للتحقق بالعبودية الصادقة والإيمان الكامل.

---

[١] رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى(٢٦٧٥).
[٢] تحفة الذاكرين للإمام الشوكاني (١١).

وأما الدعاء فهو من أجلى مظاهر العبودية والمناجاة لله سبحانه، ولهذا أمر الله به وتوعد من يستكبر فيترك الدعاء وكأنه مستغن عن ربه.

قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠].

قال الحافظ ابن كثير:" يستكبرون عن عبادتي، أي: عن دعائي وتوحيدي"(١).

ولذلك ورد في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:" الدعاء هو العبادة"(٢).

فما أعظم النعمة التي أكرمنا الله بها، وهي التقرب إليه ومناجاته بالدعاء، فالعبد مفتقر إلى مولاه الذي خلقه ورزقه وأغدق عليه النعم، ثم أمره أن يدعوه ويسأله المزيد من كل خير ووعده بالإجابة، وجعل هذا الدعاء الذي هو لمصلحة العبد، عبادة يثيبه عليها، فكيف يترك العبد سؤال ربه وهو مالك الملك، ويسأل العباد وهم لا يملكون له نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله؟!

وما أحسن قول الشاعر:

لا تسألن بني آدم حاجة ***وسل الذي أبوابه لا توصد

الله يغضب إن تركت سؤاله***وبني آدم حين يسأل يغضب

فليستحضر المسلم عظمة مناجاته لربه وهو يدعوه ويرجوه ويتذلل بين يديه، فيجد لذة المناجاة وحلاوة الطاعة، وبخاصة في ساعات الليل الأخيرة التي يأنس بها العباد الصادقون في تقربهم لربه وخشوعهم بين يديه.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:" ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له"(٣).

وفي رواية:" من يقرض غير عديم(٤) ولا ظلوم"(٥).

وهذا غاية التفضل منه سبحانه على عباده والمؤانسة لهم، فهو سبحانه خالق الخلق وموفقهم إلى طاعته، ومع ذلك سمى طاعة العبد لمولاه قرضا، والله غني عن العالمين لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية،

---

(١) تفسير ابن كثير (٨٦/٤).
(٢) رواه أبو داود رقم(١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٧٣)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم في المستدرك(٤٩٠/١)،ووافقه الذهبي.
(٣) رواه البخاري في الدعوات، باب الدعاء نصف الليل (١٤٩/٧).
(٤) عديم: من قولهم أعدم الرجل إذا افتقر فهو معدم وعديم (شرح النووي على مسلم(٣٨/٦).
(٥) رواه مسلم رقم(٧٥٨).

ولكنه يدعونا لاغتنام تلك الساعات في جوف الليل لندعوه ونناجيه ونزكي أنفسنا بالتقرب منه، ونتحقق بمقام العبودية الصادقة لله عز وجل.

ولذلك روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، وفي رواية: حتى ورمت قدماه، قالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا"[1].

٢-غذاء القلب وزيادة الإيمان:

وصف الله عباده المؤمنين بأوصاف كثيرة في تأثرهم بالذكر وتلاوة القرآن الكريم وسماعه، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢].

وقوله سبحانه: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤].

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون على ذكر الله وتلاوة القرآن ليزدادوا إيمانا وخشية من الله سبحانه وينوروا قلوبهم بذكره وشكره، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، من أبرزها:

عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: "ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك.

قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبرائيل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة"[2].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ ويسمعون ويبكون[3].

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:" ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف، والأحوال الجسيمة، مما لا يتسع ل خطاب ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان"[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨٢١).
(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم (٢٧٠١).
(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان.

ولا شك أن القرآن منهج لتربية النفس وتوجيهها إلى طريق سعادتها وهدايتها، وقد قال المولى سبحانه: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [الإسراء: ٩، ١٠].

فلقد قرر القرآن الكريم عقيدة التوحيد ورسخ مفهومها في النفس، وحدد معالم الحلال والحرام، وسلك في التربية أساليب متنوعة من الترغيب والترهيب والوعظ والتذكير، والتربية من خلال الأحداث والوقائع، كما دعا إلى تقويم النفوس واستقامة السلوك بما حفلت به آياته من مشاهد القيامة وقصص الأنبياء السابقين.

قال الإمام الآجري رحمه الله:" المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذره مولاه حذره، وما خوفه من عقابه خافه، وما رغب فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته"[٢].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" ليس كل شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما، وعلى وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنياته، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنهار في قلبه، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وبالجملة تعرف الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب"[٣]

وكذلك الذكر والدعاء وقيام الليل يغذي القلب ويزيد الإيمان ويوجه النفس إلى ما فيه صلاحها، وكثيرا ما تجد أناسا شغلوا بالدنيا وغفلوا عن ربهم ونسوا ذكره، وإذا بهم تهتز أعماق قلوبهم وتنفت أقفالها بسماع دعاء خاشع، أو صلاة ركعتين في جوف الليل، أو ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى، فتزول عن القلب غشاوته، ويحيا من غفلته.

وقد أرشد الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال:" من تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن" يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت" أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٨١).
(٢) أخلاق حملة القرآن للآجري (٣٩).
(٣) مدارج السالكين (١/٤٥١-٤٥٢).

ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدا، وقال لي يوما: لهذين الإسمين وهما: الحي القيوم، تأثير عظيم في حياة القلب"[1].

٣-شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها:

من أبرز آثار الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم أنها شفاء للنفس من أمراضها، وبخاصة تلك الأمراض التي أصبحت داء العصر في أيامنا، وحيرت الأطباء وعلماء النفس في كثرتها وانتشارها، ألا وهي أمراض القلق والكآبة والاضطراب العصبي والكبت ونحو ذلك، فالمؤمن يجد شفاءه وطمأنينة نفسه وهدوء أعصابه بالتوجه إلى خالقه يذكره ويدعوه ويتلو آيات كتابه الكريم.

قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء:٨٢].

وكما أن ذكر الله وتلاوة القرآن شفاء للنفس من القلق والكآبة، فهو أيضا شفاء للقلب من أمراض الشبهات والشهوات التي إذا ملأت القلب أظلمته وأفسدته، فإذا تغذى القلب بالذكر والقرآن عاد إلى صفائه ونقائه.

وقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:" عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء"[2].

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:" القرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن"[3].

ولعل هذا المعنى الذي أشار إليه الإمام ابن تيمية وهو حاجة القلب إلى غذاء دائم بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن، ليكون ذلك تحصينا له من الأمراض والآفات، هو أحد الحِكم من التأكيد الذي ورد في الكتاب والسنة على الإكثار من الذكر والدعاء، وما يستحب للمسلم أن يداوم عليه من الأدعية والأذكار المأثورة في الصباح والمساء، وعند دخول المنزل أو الخروج منه، وعند دخول السوق أو الأكل أو اللبس،

---

(١) مدارج السالكين (٤٤٨/١).
(٢) كتاب الزهد، للإمام أحمد بن حنبل (١٧٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٩٥/١٠-٩٦).

وغير ذلك من أعمال المسلم اليومية، حتى يبقى القلب في وقاية دائمة من كل مرض، فإذا أصيب بمرض عارض كانت تلك الأذكار والدعوات البلسم الشافي الذي تطمئن به القلوب وتحيا به النفوس.

ومن بين تلك الأذكار والدعوات المأثورة دعاء الكرب الذي ورد فيه أحاديث عديدة منها:

ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب وفي رواية: كان إذا حزبه أمر، قال:" لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش"[1].

فالمسلم يلجأ إلى الله سبحانه وقت الضيق ليجد المأمن والسكينة، فلا يفزع ولا يقلق وهو موقن بأن الله معه، وأنه ناصره ومؤيده، وأن يجيب دعاء المضطرين.

قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢].

ولا شك أن أعظم ما يورث السكينة في النفس ويغسل صدأ القلب الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وتدبره والكر وطلب العلم وبخاصة في المساجد، وقد ورد في فضل ذلك أحاديث عديدة منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده"[2].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:" لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده"[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلا يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك.

قال: وماذا يسألوني؟ قال: يسألونك جنتك.

قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب! قال: فيكف لو رأوا جنتي؟

---

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب الدعاء عند الكرب(١٥٤/٧).
(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩).
(٣) رواه مسلم (٢٧٠٠).

قالوا ويستجيرونك، قل: ومم يستجرونني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال، وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟

قالوا: ويستغفرونك، قال فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال فيقولون: رب! فيهم فلان عبد خطَّاء، إنا مر فجلس معهم، قال فيقول، وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"[1].

فأي بشارة أعظم من ذلك، وأي فضل أكبر من هذا الفضل الذي يكرم الله به عباده الذاكرين الذين تحفهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة، فلا يبقى لأمراض النفس أي سبيل أو مدخل، ولا يتمكن الشيطان من بث سمومه ووساوسه في ذلك القلب المنور بالإيمان ولذلك قال الله تعالى مخبرا عن حمايته لعباده الصالحين من تسلط الشياطين: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر: ٤٢].

---

[1] رواه البخاري في الدعوات باب فضل ذكر الله عز وجل(١٦٨/٧)

ماذا تعنى تزكية النفس؟

تزكية النفس تعني التَّطهُّر والابتعاد عن الذنوب، سواء الكبائر، أو الصَّغائر، وتتمثَّل أهمية تزكية النفس في نيل رضا المولى – عزَّ وجلَّ – والفلاح في الدنيا والآخرة، والتَّحلِّي بالصفات والأخلاق الحميدة في حد ذاته يُشعر الإنسان بسعادةٍ غامرةٍ، كما أن ذلك له تأثير سحري في التعامل المُجتمعي بين بني البشر، ويجعل الجميع في وئام وسلام، وبعيدًا عن التَّشاحُن والبغضاء والكراهية.

مـــا حُكم تزكية النفس؟

أجمع فقهاء وعُلماء الأمة الإسلامية على أن تزكية النفس فرض عين على كل مُسلم ومُسلمة، فهي تطهير لما يُصيب النفس البشرية من شرور ومُعاصٍ.

السعادة في التزكية:

إن من أعظم فوائد التزكية وعواقبها على أصحابها أنها تهبهم سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة، قال ابن الجوزي: من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال: قال تعالى: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) (الجن:١٦)

اجمل ما قيل عن تزكية النفس؟

وقال الداراني: "من صفى صفي له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله. وكان بعض المشايخ يدور على المجالس يقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله
أخبرنا الحقُّ سبحانه عن طبيعة النفس فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وأن الفلاح في تزكيتها، فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وموضوع تزكية النفس موضوعٌ عريض، وقد كتب فيه العلماءُ الكثيرَ الطيب، ومما ينفع في هذا الباب التوجُّه إلى الله سبحانه، والاستعانة به في تزكية النفس وصلاح القلب.

وقد لاحظت اهتمام كثيرٍ من الناس بالاستعاذة من شرور الآخرين، وهذا حقٌّ، فقد علَّمنا الحقُّ سبحانه أن نستعيذ من خمسةِ شرور في سورتي المعوذتين، هي:

١- شر المخلوقات كلِّها.

٢- والشرور التي تحدثُ في الليل عندما يُقبِل بظلامه.

٣- وشر النفوس الخبيثة من السواحر.

٤- وشر الحاسدين الذين يتمنَّون زوالَ النِّعم عن أصحابها.

٥- وشرِّ شياطين الجن والإنس.

ولكن بعض الناس ربما لا يعلمون خطورة شرِّ النفس، وأثر ذلك على دينه ودنياه.

وقد ورَد أن النبي ﷺ قد خص النفس بدعوات مباركة لإصلاحها وتزكيتها، والاستعاذة بالله سبحانه من شرورها.

وهذه الأدعية هي:

١- ((اللهمَّ إني أعوذ بك من العجْزِ والكَسَلِ، والجُبنِ والبُخْلِ، والهَرَمِ وعذاب القبر، اللهمَّ آتِ نَفسي تَقْوَاها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشَع، ومن نفْسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تستجاب))؛ أخرجه مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

٢- قال أبو بكر الصديق: يا رسولَ الله، مُرني بكلماتٍ أقولهن إذا أمسيتُ وإذا أصبحت، قال: ((قل: اللهمَّ فاطر السمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيب والشَّهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفْسي، وشرِّ الشيطان وشركه، قال: قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك))؛ أخرجه الترمذي (٣٣٨٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال ابن حجر في تخريج الأذكار: "هو حديث صحيح".

وعلمنا أيضًا أن نقول في صباح كلِّ يوم: ((اللهم إني أعوذ بك من شر نفْسي، ومن شر كلِّ دابَّة أنت آخذٌ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم)).

٣- وقال رسول الله ﷺ: ((يا فلان، إذا أويتَ إلى فراشك، فقل: اللهمَّ أسلمتُ نَفْسي إليك، ووجَّهْتُ وجهي إليك، وفوَّضْتُ أمْري إليك، وألجأتُ ظَهْري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلت، فإنك إن متَّ في ليلتك متَّ على الفطرة، وإن أصبحتَ أصبتَ خيرًا)).

وفي رواية قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((إذا أتيتَ مَضْجعكَ فتوضَّأ وُضُوءك للصلاة، ثم اضطَجِعْ على شِقِّك الأيمنِ، وقل - وذكر نحوه - وفيه: واجعلهن آخر ما تقول))، فقلتُ أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت، فقال: ((لا، وبنبيِّك الذي أرسلت))؛ هذه رواية البخاري، ومسلم.

٤- عن عبد الرحمن بن أبي بكرة رضي الله عنه قال: وقال لي رسولُ الله ﷺ دَعَوات المكروب: ((اللهم رحمَتك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنت))؛ أخرجه أبو داود (٥٠٩٠).

٥- اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شرِّ نفسي:

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: ((يا حُصَينُ، كم تَعبُد اليوم إلهًا؟ قال: سبعة: سِتَّة في الأرض، وواحدًا في السماء، قال: فأيهم تعدُّ لرهبتك ورغبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: يا حصينُ، أمَا إنك لو أسلمتَ عَلَّمْتُك كلمتين تنفَعَانِك))، قال: فلما أسلم حُصين، جاء فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني الكلمتين اللتين وعدتني، قال: ((قل: اللهمَّ ألهِمني رُشدي، وأعِذْني من شرِّ نفسي))؛ أخرجه الترمذي.

٦- قال ابن عباس: "بِتُّ ليلة عند خالتي ميمونةَ بنتِ الحارث، فقلت لها: إذا قام النبيُّ ﷺ فأيقظيني، فقام رسولُ الله ﷺ، فقُمتُ إلى جنبه الأيسر، فأخذ بيدي فجعلني من شِقِّه الأيمن، فجعلت إذا أغفيتُ يأخذ بشحمة أُذُني، قال: فصلَّى إحدى عشرة ركعة، ثم احتبى، حتى إني لأسمع نَفَسَه راقدًا، فلما تبيَّنَ له الفجرُ صلَّى ركعتين خفيفتين".

وفي رواية: فدعا رسولُ الله ﷺ ليلتئذٍ بتسع عشرة كلمة، قال سلمةُ: حدَّثَنيها كريب، فحفظتُ منها ثنتَي عشرة، ونسيتُ ما بقي، قال رسول الله ﷺ: ((اللهمَّ اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يديَّ نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا، وأعظم لي نورًا)).

٧- قال رسول الله ﷺ: ((كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبَّك، وحبَّ من يُحِبُّكَ، وحبَّ العمل الذي يبلِّغني حبَّك، اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفْسي وأهلي ومالي، ومن الماء البارد))؛ رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: "هذا حديث حسن غريب".

إن الدعاء له شأنٌ عظيم في إصلاح النفس، ويلاحظ أن النبي ﷺ كان يكثر من قوله: "والذي نفسي بيده"، وهو قسَم يدلُّ عل أهمية النفس البشرية، ويشير إلى أنها مملوكةٌ لله سبحانه، وأن العبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلا بإذنه تعالى.

((قل: اللهمَّ ألهِمني رُشدي، وأعِذْني من شرِّ نفسي))؛ أخرجه الترمذي.

٦- قال ابن عباس: "بِتُّ ليلة عند خالتي ميمونةَ بنتِ الحارث، فقلت لها: إذا قام النبيُّ ﷺ فأيقظيني، فقام رسولُ الله ﷺ، فقُمتُ إلى جنبه الأيسر، فأخذ بيدي فجعلني من شِقِّه الأيمن، فجعلت إذا أغفيتُ يأخذ بشحمة أُذُني، قال: فصلَّى إحدى عشرة ركعة، ثم احتبى، حتى إني لأسمع نَفَسَه راقدًا، فلما تبيَّنَ له الفجرُ صلَّى ركعتين خفيفتين".

وفي رواية: فدعا رسولُ الله ﷺ ليلتئذٍ بتسع عشرة كلمة، قال سلمةُ: حدَّثَنيها كريب، فحفظتُ منها ثنتَي عشرة، ونسيتُ ما بقي، قال رسول الله ﷺ: ((اللهمَّ اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يديَّ نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا، وأعظم لي نورًا)).

٧- قال رسول الله ﷺ: ((كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبَّك، وحبَّ من يُحِبُّكَ، وحبَّ العمل الذي يبلِّغني حبَّك، اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفْسي وأهلي ومالي، ومن الماء البارد))؛ رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: "هذا حديث حسن غريب".

إن الدعاء له شأنٌ عظيم في إصلاح النفس، ويلاحظ أن النبي ﷺ كان يكثر من قوله: "والذي نفسي بيده"، وهو قسَم يدلُّ عل أهمية النفس البشرية، ويشير إلى أنها مملوكةٌ لله سبحانه، وأن العبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلا بإذنه تعالى.

الدعـاء .. على العبد أن يلجأ إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع ليصلح له نفسه ويزكيها؛ ولذلك كان من دعاء نبينا "اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا" [صحيح مسلم]

اثر العلم في تزكية النفس

كي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس، لابد من أن يتحقق فيه شرطان:

- أن يصحبه العمل الصالح مع الإخلاص لله سبحانه والتزام الآداب المطلوبة للعالم والمتعلم.
- أن يتجنب المسلم المراء والخصام في مسائل العلم.

ولنبدأ بالشرط الأول: العلم والعمل

العلم النافع هو العلم الذي يتبعه العمل ويلتزم صاحبه بالخلق الفاضل والآداب الكامل والاعتصام بالكتاب والسنة وإخلاص القصد لله سبحانه، وبذلك يثمر ثمراته المرجوة في تزكية النفس.

ولقد حذرنا الله سبحانه من العلم الذي لا يصاحبه العمل، ومن القول الذي لا يتبعه الفعل، فقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢، ٣]

وقال سبحانه: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤]، كما بين الرسول ﷺ أن العالم سيسأل يوم القيامة عن علمه ماذا عمل فيه وهل أثمر عنده الخشية من الله والتقرب إليه بالعمل الصالح أم اتخذه وسيلة للتظاهر والتباهي أمام الناس؟

روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)[1] .

وروى مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)[2].

وهذه عقوبة من لا يعمل بما آتاه الله من علم، ولا ينتفع به، وإنما يكتفي بأمر الناس ونهيهم، ويترك نفسه لتناسق وراء المعاصي في غفلة عن أعين الناس، ولكن الله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية، والذي ستره في الدنيا حتى ظن الناس به الصلاح، يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

---

[1] رواه الترمذي في صفة القيامة، رقم ٢٤١٧، وقال حديث حسن صحيح.
[2] رواه مسلم في الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، رقم ٢٩٨٩.

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم مع تقواهم وتمسكهم بالكتاب والسنة يخشون هذا الموقف العصيب يوم القيامة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: (إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أو جهلت؟ فأقول: علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله عز وجل آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة هل ائتمرت، والزاجرة هل ازدجرت، فأعوذ بالله من علم لا ينفع)[1].

وعنه رضي الله عنه أنه قال: (لا تكون عالمًا حتى تكون بالعلم عاملًا)[2].

ولقد كان الرسول ﷺ يسأل ربه العلم النافع ويتعوذ به من العلم الذي لا ينفع.

روى مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)[3].

قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (من فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ، وصار علمه وبالًا وحجة عليه، فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربه، ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصًا ولها طالبًا، ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه)[4].

ولقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على العلم النافع الذي يزكي النفس، وبذلك تخرج من مدرسة النبوة هذا الجيل القرآني الفذ الذي حمل رسالة الإسلام إلى الآفاق، وتسلم وراثة النبوة ليسلمها لمن بعده بأمانة وإخلاص، وتعاقبت الأجيال الفاضلة التي تتلقى العلم للعمل وتتأدب العلم وتتحلى بفضائله.

روى الخطيب البغدادي عن مالك بن انس قال: قال ابن سيرين: "كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم"[5].

وعن مالك أيضًا عن ابن شهاب أنه قال: (إن هذا العلم أدب الله الذي أدب به نبيه ﷺ، وأدب النبي ﷺ أمته، أمانة الله إلى رسوله، ليؤديه على ما أدى إليه، فمن سمع علمًا فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل)[6].

وعن إبراهيم بن حبيب قال: قال لي أبي: (يا بني إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إلي لك من كثير من الحديث)[1].

---

(1) جامع بيان العلم وفضله، للإمام ابن عبد البر، ص٣/٢.
(2) أخلاق العلماء، للإمام الأجري، ص ٥٧.
(3) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم ٢٧٢٢.
(4) فضل علم السلف على الخلف، للإمام ابن رجب الحنبلي، ص ١٢٢
(5) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للإمام الخطيب البغدادي، ص٧٩/١.
(6) المرجع السابق

ولذلك كانت العلامة التي يتميز بها أهل العلم النافع أنهم يتواضعون ولا يرون لأنفسهم حالًا ولا مقامًا ويكرهون المدح وثناء الناس عليهم، ولا يتكبرون على أحد، وتراهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، يواظبون على عبادة ربهم، وكلما ازدادوا علمًا ازدادوا تواضعًا لله وخشية وانكسارًا وذلًا له سبحانه[٢].

وقد حدد الإمام الشاطبي رحمه الله شروط العالم المتحقق بالعلم، وهي ثلاثة:

- العلم بما علم حتى يكون قوله مطابقًا لفعله.
- أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم.
- الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بآدابه فلما تركت هذه الأوصاف رفعت البدع رؤوسها وحل اتباع الهوى محل الاقتداء[٣].

المراء والخصام في مسائل العلم يقسي القلب ويحرم من ثمرات العلم:

الشرط الثاني الذي لابد من تحققه لكي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس وترقية حالها هو تجنب الخصام والمراء والجدال في مسائل العلم.

والدليل على ذلك ما رواه أصحاب السنن[٤]، عن أبي أمامه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ: {وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: ٥٨])، وقال بعض السلف: (إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل)[٥].

وقال مالك رحمه الله: (المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم)[٦].

وقال أيضًا: (المراء في العلم يقسي القلب)[٧].

وسمع الحسن البصري قومًا يتجادلون فقال: (هؤلاء قوم ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا)[٨].

وقال محمد بن جعفر الصادق: (إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق)[١].

---

[١] المرجع السابق، ص ١/ ٨٠
[٢] فضل علم السلف على الخلف للإمام ابن رجب الحنبلي، ص ١٢٨- ١٢٩.
[٣] الموافقات للإمام الشاطبي، ص١/٥٤- ٥٥.
[٤] رواه الترمذي في التفسير، رقم ٣٢٥٠، وقال حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة، رقم (٤٨)، وأحمد في مسنده، ص ٢٥٢/٥- ٢٥٦.
[٥] فضل علم السلف على الخلف، ص ٨٦
[٦] المرجع السابق، ص ٨٨
[٧] المرجع السابق، ص ٨٨
[٨] المرجع السابق، ص ٨٩

وقد علق الإمام ابن رجب الحنبلي بعد أن أورد هذه الأقوال عن علماء السلف، فقال: (وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض... فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به الحق ويميز به بينه وبين الباطل)[2].

ثم قال: (وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين)[3].

وبعد هذا البيان لضرورة البعد عن الجدال والمراء في مسائل العلم وضع لنا الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله ضوابط للعلم النافع البعيد عن الجدل والخصام فقال: (العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق، والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل)[4].

ولا شك أن هذا التحديد يشمل كل علم نافع يسير في ركاب الكتاب والسنة ويلتزم بمنهج السلف الصالح ويحذر صاحبه غرور النفس وهواها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٩١
(٢) المرجع السابق، ص ٩٢- ٩٤
(٣) المرجع السابق، ص ٩٧
(٤) فضل علم السلف على الخلف، ص ١١١

اثر الصيام في تزكية النفس

أثر الصوم في حفظ النفس

الصوم ركن من أركان الإسلام الخمسة، وعبادة من عباداته الأساسية التي يقوم عليها بنائه، وشعيرة من شعائره التي تثبت هويته الإسلامية.

والعبادات في الاسلام شرعت لتهذيب الأنفس وترتيبها على الطاعة والاستقامة، وجلب المصالح لها، ودفع المفاسد عنها، وفي ذلك كله حفظ لها في العاجل والآجل، وصيانة لها في المعاش والمعاد، وفي الحال والمآل، والصوم واحد من العبادات يحصل به حفظ الأنفس فيما ذكر، حفظا صحيا وحفظا معنويا.

كيف يؤثر الصيام في سلوك المسلم؟ تتجلّى آثار فريضة الصيام في سلوك المسلم في العديد من الأمور، وفيما يأتي بيان البعض منها: زيادة التقوى في القلوب، وتجديد الإيمان فيها قال الله -تعالى-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة ١٨٣

فللصيام أثرٌ واضحٌ في وقاية المسلم من الوقوع في الشهوات، أو اقتراف الذنوب والمعاصي؛ إذ يمتنع العبد من الوقوع فيما يُغضب الله -تعالى-، ويُلزم الطاعات، والأعمال الصالحة؛ ولذلك كان الأجر المُترتّب على الصيام مختلفاً عن الأُجور المُترتّبة على باقي الأعمال، قال النبيّ -عليه الصلاة والسلام- فيما يرويه عن ربّه -عزّ وجلّ-: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له إلَّا الصَّوْمَ، فإنَّه لي وأنا أجْزِي به، ولَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِن رِيحِ المِسْكِ . رواه البخاري، البخاري، عن أبي هريرة ٥٩٢٧،

وقد اختصّ الله الصيامَ بالأجر العظيم؛ بسبب ما ينطوي عليه من الإخلاص؛ إذ إنّ نيّته مَخفيّةٌ فيما بين العبد وربّه؛ لتدلّ على حقيقة ومنزلة إيمان المسلم وتقواه، ويُراد بالتقوى: أن يجعل العبد بينه وبين الوقوع في غضب الله حاجزاً يمنعه من الوقوع فيه، بالرضا التامّ عن كلّ ما أمر به الله -سبحانه-، وأداء تلك الأوامر بقناعةٍ، واجتناب المُحرّمات والنواهي جميعها

استشعار مراقبة الله في السرّ والعلن الصيام يُقوّي العلاقة الروحيّة بين العبد وربّه؛ فيستشعر مراقبته -سبحانه- في الأحوال جميعها، فيبتعد عن كل ما يغضب الله، ويقترب من كل ما يرضيه -سبحانه-.

التربية على تحقيق التوازن والاعتدال في حياته الصيام يُهذّب النفس الإنسانيّة؛ إذ إنّ الإفطار والإمساك مُحدّدان بموعدٍ مُعيّنٍ، وبذلك تعتاد النفس على القناعة، وتنظيم قضاء شهوة الطعام، وفي ذلك اقتداءٌ بالنبيّ -عليه الصلاة والسلام-؛ إذ كان يبيت الليالي لا يأكل شيئاً، كما روى عبدالله بن عباس -رضي الله

عنهما-: (كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَبيتُ اللَّيالي المتتابعةَ طاوِيًا وأَهلُهُ لا يجدونَ عَشاءً وَكانَ أَكثرُ خبزِهم خبزَ الشَّعيرِ).

إدراك النِّعم الكثيرة على العباد المسلم يُدرك قيمة النِّعم التي منحه إيّاها الله بشكلٍ أكبرٍ إن فقدها؛ ولذلك فإنّ الصائم يستشعر فضل الله عليه، بنِعَم الطعام، والشراب، والنِّكاح؛ بسبب امتناعه عنها مُؤقّتاً، ممّا يُعزّز في النفس الإنسانيّة الإحساس بحاجات الفقراء والمساكين، وغيرهم من المحتاجين

تربية النفس على لزوم الصدق في القول والعمل ذلك من خلال لزوم الحقّ والصواب، والوفاء بعهد النفس على الطاعة والعمل، وموافقة الظاهر للباطن، بعيداً عن الكذب، والنفاق، فتتعزّز الأخلاق العظيمة في النفس أيضاً؛ بإدراك الأجر المُترتّب على الصيام، والحرص على عدم ضياعها؛ بالزور، أو الكذب، فيحمل المسلم نفسه بذلك على لزوم الصدق، والطاعة في صيامه؛ ليضمن بذلك تحقيق الأجر المُترتّب عليه، وفي ذلك أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي لله عنه-، أنّ النبيّ -عليه الصلاة والسلام- قال: (مَن لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ)، وتحقُّق الصدق في النفس الإنسانيّة يؤدّي إلى لزوم معالي الأمور ومحاسنها، واجتناب سفاسف الأعمال

تحرّي الدقّة والحقيقة في الأمور كلّها سواءً كانت قوليةً، أو عمليّةً؛ فالصيام يمنع ارتكاب أيّ عملٍ ينافي الصدق في الأمور، أو يخالفه، وبالتالي ينال المسلم محبّة الله -سبحانه-، والقُرب منه، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنهما-، عن النبيّ -عليه الصلاة والسلام-: (إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا).

الصيام في تربية شخصيّة المسلم يُحدث الصيام أثراً كبيراً في شخصيّة المسلم، ويُذكَر من ذلك:

تقوية إرادة المسلم إذ يُعلّمه الصيام القدرة على ضبط نفسه، ومقاومة رغباتها، كما يسمو بالنفس الإنسانيّة من الناحية الخُلُقيّة؛ لينال بذلك مرتبة الصائم القائم، قال النبيّ -عليه الصلاة والسلام-: (إنَّ المؤمنَ ليُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصَّائمِ القائمِ).

تربية النفس على خُلق الصبر المُتضمّن للصبر على طاعة الله يكون ذلك بحبس النفس، ومنعها من الطعام، والشراب، وغيرهما من الشهوات؛ لتحقيق مرضاة الله -سبحانه-، كما أنّ في الصيام صبرٌ عن الشهوات والمعاصي؛ وبهذا يحقّق الصائم المُمتنع عن المعاصي لذّة الصبر عمّا حرّمه الله، بالإضافة إلى الصبر على ما قدّره الله؛ بما يكون من الصبر على الجوع، والعطش.

تعويد النفس الإنسانيّة على شُكر الله وحمده الصوم وسيلة إلى شكر النعم؛ لأن كفّ النفس عن الأكل، والشرب، وسائر المفطرات من أجلِ النعم وأعلاها؛ لأن الامتناع عن هذه النعم زماناً معتبراً يُعرّفُ قدرها؛ لأن النعم مجهولة، فإذا فقدت عُرفت، فيحمل ذلك على القيام بشكر الله تعالى؛ ولهذا إذا أفطر الصائم وجد لذة عظيمة للشراب البارد على الظمأ، وكذلك الطعام، فيحمله ذلك على شكر الله –عز وجل–، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك أثناء الكلام عن الصيام قال الله تعالى:(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون). أثر الصيام في المجتمع تربية المجتمع المسلم على التكافل الاجتماعي ذلك اقتداءً بالنبيّ –عليه الصلاة والسلام–؛ إذ كان كثير العطاء والسخاء في شهر رمضان، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عبّاس –رضي الله عنهما–: (كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بالخَيْرِ، وَكانَ أَجْوَدَ ما يَكونُ في شَهْرِ رَمَضَانَ) فيُضاعَف أجر المسلم في رمضان بخِلاف غيره من الشهور، كما ضرب السلف الصالح –رضي الله عنهم– أروع الأمثلة في صنائع المعروف في شهر رمضان؛ فرُوِي عن عبدالله بن عمر –رضي الله عنهما– أنّه كان يضع الطعام بين يديه للإفطار بعد الصيام، فيدخل عليه السائل، فيُقدّم له طعامه، وكان التابعيّ الحسن البصريّ يُعِدّ الولائم للفقراء، والمساكين، واليتامى في رمضان؛ عملاً بقول الرسول –عليه الصلاة والسلام–: (مَن فطَّرَ صائمًا كانَ لَهُ مثلُ أجرِهِ، غيرَ أنَّهُ لا ينقُصُ من أجرِ الصَّائمِ شيئًا). ومن شأن اجتماع المسلمين مع بعضهم على موائد الإفطار تعزيز الروابط فيما بينهم، والتأليف بين قلوبهم؛ فتقوى نفوسهم على الطاعة والعمل، إضافة إلى أنّ شهر رمضان فرصةٌ عظيمةٌ لسَدّ حاجات الفقراء والمحتاجين؛ التماساً للأجر والثواب من الله –سبحانه–، فيصل المسلمون إلى مرتبة الإحسان الذي يُعدّ أعلى مراتب الإيمان، وبالتالي نَيل محبّة الله –سبحانه– القائل: (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). تعزيز الوحدة بين مستويات المجتمع المسلم إذ تتجلّى في شهر رمضان الوحدة والأُخوّة في أسمى معانيها وصُورها؛ فالمسلمون على اختلاف أجناسهم، ومراتبهم، ولُغاتهم يصومون في وقتٍ واحدٍ، ويفطرون في وقتٍ واحدٍ، لا فرق في ذلك بين غنيٍّ وفقيرٍ، أو ذكرٍ وأنثى، كما تظهر معاني وحدة المسلمين في وقوفهم صفّاً واحداً للصلاة، على اختلاف مستوياتهم، ومكانتهم. تحقيق المساواة بين جميع أفراد المجتمع، ومنع الاختلاف بينهم الصوم عامل مهم وفعال في الارتقاء بمستوى الافراد والمجتمعات علي كافة الاصعدة الروحية والنفسية والتربوية والاجتماعية والصحية والامنية وهو يحقق للجميع مزيدا من الرقي والسمو المادي والمعنوي، وبهذا الأثر تزداد روابط الأخوة ويتحقق معنى حديث النبيّ –عليه الصلاة والسلام–: (تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)

والقلب هو محور الإنسان وقطب رحاه، وهو مصدر الصلاح أو الفساد فيه، يصدق ذلك قول النبي ﷺ: "ألا وإن الجسد كله إلا وهي القلــب"

رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩

وصلاح القلب إنما هو تربيته على الطاعة والصلة بالله عز وجل، وحفظه من موجبات الفساد، وصيانته من الغفلة، وحمايته من الغلطة والقسوة.

ولتحقيق ذلك وتعميقه وضمان استمراره في العبد افترض الله عليه العبادات، ومنها الصوم فهو تربية للقلب، ومحطة لتليينه وترقيقه وتجنيبه القسوة.

وقد ذكر العلماء أن من فوائد الصوم العائدة على القلب: اكتسابه الصفاء والرقة، وأن من أجاع بطنه بالصوم فطن قلبه، وأن من شبع ومن قسا قلبه، ونقل عن بعض الحكماء أن حب الشبع فيه قساوة القلب، ومفهوم ذلك: أن الصوم يورث رقة القلـب

خلاصة المقال: الصيام شعيرة عظيمة شرعها الله عز وجل في الأساس لتحقيق التقوى وتزكية النفس وتطهيرها، وإذا أداها المسلم على أكمل وجه انعكس أثرها على جميع نواحي الحياة؛ لما لها من أثر طيب في زيادة مستوى الإيمان وتربية النفس وتعويدها على الصبر والمجاهدة، فالصيام يعتبر بحق مدرسة تدريبية تقرب المسلم من الله تعالى، ولا يقتصر أثر الصيام على مستوى الفرد فقط بل يتعدى ذلك إلى مستوى المجتمع، فنلحظ في هذا الشهر ازدياد مظاهر التكافل الاجتماعي وازدياد روابط الأخوة بين المسلِمين

اثر الحج في تزكية النفس

شرع الله لنا العبادات حتى نُزَكِّي بها نفوسنا، ونصلح بها قلوبَنا، وإذا زكت النفوس أفلحتْ ونجتْ؛ كما قال – تعالى –: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩].

والحج مِن العبادات العظيمة التي جعلَها الله طهارةً، وتربيةً، وغُفرانًا لذنوب عباده. والكثيرُ من الناس يرى العبادات – ومنها الحج – مجرَّد تعبير عن الإيمان، وحصول أجْر، وينتهي الأمرُ، وليس الأمر كذلك، بل إنَّ العبادات مع تحقيق الإيمان، وتحصيل الأجر – هي علامات يهتدي بها العبدُ في دروب الحياة المختلفة، وفيها تحقيق التوازنِ الصحيح بين عمَل الدنيا، وعمل الآخرة. ورحلةُ الحج هي مثالٌ مصغَّرٌ لرحلة الحياة خلال أيام معدودة؛ ينتقل الحاجُّ مِن بلده المألوف إلى بلدٍ آخر، هو خيرُ البلاد كلها، ويُمارس عبادات وطاعات بطريقةٍ معينة، مع انتقال من مكان إلى مكان، ويعيش مع أناس آخرين، مع اختلاف الألْوان والأجناس والبلاد، ويُشاركهم في الظعن، والإقامة، واليقَظة، والنَّوْم، والطَّعام، والشراب، ثُم بعد ذلك يكون الافتراقُ والوداع، وهكذا تكون الحياة.

وعبادةُ الحجِّ قد خلتْ عند الكثيرين من معانيها الصحيحة، التي توصلُ الحاج إلى تزكيةِ نفسِه بهذه العبادة العظيمة، وعند النظَر في وسائل التزكية بالحج نجد أنَّ هناك ثلاث مراحل ومستويات لوسائل تزكية النفوس بالحج: أولها: ما قبل الحج.

وثانيها: ما يكون خلال العبادة.

وثالثها: ما يكون بعد أداء النُّسُك.

علمًا بأنَّ هذه الوسائل صالحة للعبادات كلها، وتفصيلها كالآتي:

أولاً: وسائل التزْكية قبل العبادة:

١ – إخلاص العبادة لله – تعالى –: وذلك بأن ينوي العبدُ أن هذه العبادة لله – تعالى – لا رياء، ولا سُمعة، ولا غرَض مِن أغراض الدنيا؛ بل خالصة لله – تعالى.

وتأمَّل قوله – تعالى – في تحقيق الإخلاص في الحج؛ {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة: ١٩٦]، ((مَن حج لله، فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدتْه أمه)).

٢ – مُتابعة النبي – ﷺ – والاقتداء به في كلِّ عملٍ من أعمال الحج: ومعنى هذا أن تبحثَ عن أتم وأكمل الأعمال التي أتى بها النبيُّ – ﷺ – في حجِّه، لا أن تبحثَ عن الرخَص والأعذار المقطعة للنسُك أو العمل.

واعلم دائمًا أنك تسعى لغايةٍ عظيمة في حجك، ((والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))؛ لذا لا يحسن بك أن تُضيع بر حجك، وإتمامه، وصيانته، من خلال البحْث عن الرُّخَص، وتضييع فريضة الله عليك. ولذا ينبغي تعلُّم أحْكام الحج، مِن خلال قراءة كتابٍ في صفة الحج الصحيحة، أو استماع درس، أو غير ذلك.

٣ – تدْريبُ النفس على الحج: من خلال العمرة وتَكْرارها، وهذا واضِحٌ في العبادات كلِّها، ولذا جاءت الشريعةُ بعبادات تطوُّع مِن جنس الفرائض، وهي في غالبها تدريبٌ وتعويدٌ على أداء الفريضة، وذلك مثل: السنَن الراتبة للصلاة، وكذلك صوم غالب شعبان استعدادًا لرمضان، وهكذا نجد هنا في الحج التعوُّد على العمرة؛ يقول النبي – ﷺ–: ((العمرة إلى العمرة كفَّارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))، تأمَّل كيف قرن النبيُّ – ﷺ– بين العمرة وبين الحج في حُصُول الثواب مع ابتدائه بالاعتمار، فكانت العمرةُ هي مِن أسباب فَهْم وتدبُّر الحج؛ حتى يُحصِّلَ العبدُ الأجرَ المترتِّب على الحج، ويقول النبي – ﷺ–: ((تابِعوا بين الحج والعمرة)). ولعل المعنى اتَّضح من سياق هذه الأحاديث.

٤– النظَر في فضائل الحج، وتشويق النفْس إلى بلَد الله الحرام من خلال الآيات والأحاديث وكلام أهل العلم في بثِّ الهمَم لِحج بيت الله الحرام، وتأمَّل دعاء إبراهيم – عليه السلام – في حب الناس لمكة: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبراهيم: ٣٧]، ولعل الله كتب في القلوب هذه المحبة والهوى لبيته العتيق.

ثانيًا: وسائل التزكية أثناء العبادة:

١ – الثبات على الإخلاص لله والتوحيد، واستشعاره في كلِّ عمَل منَ الأعمال، خاصة وأن الحج يظهر فيه التوحيدُ واضحًا جليًّا، وانظر إلى قول الله – تعالى – عن إبراهيم: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [الحج: ٢٦].

وتأمل التوحيد في تلْبية النبي – ﷺ– وفي دعائه على الصفا والمروة، وفي مواقيت الحج المختلفة، بل ثبت عنه عند إحرامه، وهو يُعلِّم الناس الإخلاص لله، وعدم النظر إلى متاع الدنيا، ولا إلى ثناء الناس؛ يقول أنس: حج النبيُّ – ﷺ– على رحْل رث وقطيفة لا تُساوي أربعة دراهم، وقال: ((اللهم هذه حجة، لا رياء فيها، ولا سمعة)). ٢ – الاقتداءُ بالقُدوة – ﷺ– الذي علَّم الأمَّة كيف تؤدِّي هذه الفريضة؛ حيث حجَّ بالأمَّة، وقال لهم: ((لِتأخذوا عني مناسككم))؛ مسلم.

٣ – البُعد عنْ كل ما يَحُول بين العبد وبين اغتنام فريضة الحج، وذلك بالبُعد عن المعاصي والذنوب؛ {فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧].

وكذلك اجتناب ما حَرَّم عليه لأجل إحْرامِه مِن محْظورات الإحرام، فإنَّ هذا كله مِن تعظيم الحج والنُّسُك الذي تلبس به الحاج، ولذا مَنْ عَظَّم هذه الشعائر رَزَقَهُ الله التقوى، وحُسن العمل؛ {ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢].

٤- الوقوف على المشاعر، والتأمُّل في تاريخها ومعانيها وعلاقتها بالتوحيد، والتوكل، والتعظيم لله – تعالى – يقول النبي – ﷺ-: ((قفوا على المشاعر؛ فإنها من إرث أبيكم إبراهيم)). تأمل في السعْي بين الصفا والمروة، وتذكر أسرة آل إبراهيم، وكيف أكرمهم الله، وخلَّد ذِكْرهم، بأن جعل المناسك على طريقتهم.

تأمل في الطواف، وتذكر أن إبراهيم – وغيره من الأنبياء – طاف بهذا البيت، ورجا الله – تعالى – ودعاه، بل وتذكر ما يحاذيه في السماء من البيت المعمور، وأولئك الملائكة الذين يَطُوفون به، ثم لا يعودون إليه أبدًا إلى يوم القيامة، وأنت – أيها الحاج – تعود مرات ومرات، تذكَّر ونافس وسابق عبادَ الله الصالحين في عمَل الصالحات.

ولهذا؛ كلما تأمَّلَ الحاجُّ في هذه الأنساك، ازداد قربًا منَ الله، وعرَف مقدار نعمة الله عليه، بأداء هذا الشعيرة.

٥ – الصبر على ما قد يُواجِه الحاج من مشاق خلال أداء نُسُكه، لكنَّه إذا عرف عظيم الأجر، هان عليه كلُّ تعبٍ. ولذا منَع الله – تعالى – ما ينقص الأُجُور؛ فقال – تعالى -: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧]، وانظر إلى الخِصام والجدل، كم يحرم الحاج من أجور عظيمة!

ثالثًا: وسائل الثبَات على التزكية بعد العبادة:

*حاسب نفسك واسألها ما بين البداية والنهاية: هل غفر الله لي ذنبي؟ هل تقبَّل عمَلي؟ هل حججتُ الحج المبرور؟

*أحْسِن الظن بالله في قَبُول عبادتك، واعلم أنَّ حُسن الظن بربّك يُوجب عدم الاغترار بجميل ستره – تعالى – عليك.

*لا تُحدِّث نفسك بمعصية الله؛ لأنَّ بعضَ الناس وهو في العبادة أو قارَب ختمها يبدأ يُفَكِّر في ذنوب ومعاصٍ قد تاب منها، فسبحان الله! أهكذا يكون شُكْرُ نعمة الله – تعالى – عليك الذي وفَّقك وهداك، ويسَّر لك أن تكون من حُجاج بيته، ثم تَهمُّ بمعصيته – تعالى – وأنت لَم تخرج من بيته العظيم؟! غفرانك اللهم ربي!

*أيها التائب، اثْبُت على التوبة والإنابة، وادْعُ ربَّك: "اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك، واجعلنا ممن يحج ويعتمر، مع غفران ذنب، وصلاح قلب".

وأخيرًا:

بكى أحد الصالحين وهو يودِّع الحجاج، وهم في طريقهم إلى الحج، وقال يُخاطب نفسه: وا أسفاه! يتأسف على عدم قدرته على حج بيت الله الحرام، ويقول: هذه حسرة مَن انقطع عن البيت، فكيف بِمَن انقطع عن ربِّ البيت؟!

أسأل الله ألا يحرمنا حج بيته، والتلذُّذ بمناجاته، والتوَدُّد إليه عامًا بعد عام، تقبَّل الله من الجميع.

الحج مؤتمر يقام كل عام على نحو تعجز أقوى أمم العالم وأدقها تنظيماً أن تقيم مثله ولو في الدهر مرة قال تعالى:{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}[1]، ولا تكاد توجد جماعة من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلا وفي هذا المؤتمر من يمثلها.

وإذا علمنا أن لكل عبادة غايتها المثلى، وهدفها الأسمى؛ فإن للحج من الغايات الكريمة، والعوائد المحمودة ما لا يستطيع القلم أن يحصيه عداً، أو يستوعبه دراسة وبحثاً؛ وإنه مهما تكلم المتكلمون، وحاضر المحاضرون حول أي عبادة افترضها الله – تعالى – وأسرارها؟ ودلالاتها، والغاية التي من أجلها فرض الله هذه العبادة؛ فلن يوفوها حقها، ولن يصلوا إلا إلى اليسير منها؛ لأنه لا يعلم هذه الأمور كلها إلا ربنا – عز وجل –؛ ولكن لنقف وقفات يسيرة مما يسهله الله – تعالى – لنا، وعلى حسب أفهامنا، والله المستعان، وعليه التكلان.

من آثار الحج في تزكية النفس:

١. أن الحج فيه معنى الامتثال لله – تبارك وتعالى – حق الامتثال، والاستجابة لأداء الواجب الذي افترضه الله –تبارك وتعالى – {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[2] فاللام في قوله: {لِلَّهِ} هي التي يقال لها "لام الإيجاب والإلزام"، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف "على" فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب؛ كما إذا قال القائل: لفلان عليّ كذا، فذكر الله – سبحانه – الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب

---

[1] سورة الحج (٢٧-٢٩).
[2] سورة آل عمران (٩٧).

تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصه الدليل كالصبي والعبد.

وقوله: {مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً} في محل جرّ على أنه بدل بعض من الناس، وبه قال أكثر النحويُّون، وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بحج، والتقدير: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وقيل: إن {من} حرف شرط، والجزاء محذوف، أي: من استطاع إليه سبيلاً فعليه الحج.[1]

٢. أن في الحج يعيش المؤمن أقوى درجات الإيمان؛ لأنه يمتنع عن أن يفكر في المعصية، بل أن يفكر حتى وهو ببيته ووطنه؛ ولأنه – تعالى– يقول: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[2]، فقوله: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} أي: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، وقوله: {بِظُلْمٍ} أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، قال العَوْفي: عن ابن عباس – رضي الله عنه –: "{بِظُلْمٍ} هو أن تَستحلَ من الحرم ما حَرّم الله عليك من لسان، أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَلَ ذلك فقد وجب له العذاب الأليم"، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر إذا كان عازما عليه وإن لم يوقعه، فعن ابن مسعود– رضي الله عنه – في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: "لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعَدَن أبينَ؛ أذاقه الله من العذاب الأليم"[3].

٣. في الحج تتحقق درجات الصبر الثلاث: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله مما يصيب الحاج من المشقة والجهد، والعنت وفقد المال، وبعد الأهل والأحباب، وهو تدريب واقعي للمسلم على الصبر والطاعة، وآثاره تظهر في حياة المسلم الذي يؤدي هذه الفريضة.

٤. الحج مدرسة للبذل والتضحية والعطاء: فهو يتعلم دروساً في البذل والتضحية، ولذا كان الحج باباً من أبواب الجهاد، أليس الحاج يترك وطنه وأهله وأحبابه؟ أليس الحاج يبذل المال قربة لله؟ أليس الحاج يجهد نفسه، ويخلع ثيابه، ويتجرد من كل شيء طاعة لله، وامتثالاً لأمره، وهذا لون من ألوان الجهاد بالمال، والجهد، والوقت.

٥. في الحج تذكير بالموت ويوم المحشر: فهو يذكِّر المسلم بيوم لقاء الله، وذلك إذا تجرد الحاج من ثيابه، ولبى محرماً، ووقف بصعيد عرفات، ورأى كثرة الناس، ولباسهم واحد يشبه الأكفان، وهنا تجول الخواطر في مواقف سيتعرض لها المسلم بعد وفاته، فيدعوه ذلك للاستعداد لها، وأخذ الزاد قبل لقاء الله.

---

[1] فتح القدير (ج١/ص٤٩٨).
[2] سورة الحج (٢٥).
[3] تفسير ابن كثير (ج٥/ص٤١١).

٦. في الحج تعويد للمسلم احترام ما حوله من شجر وحجر... الخ، وأن يقف عند حدود الله، فلا يجوز له أن يقطع الشجر، ولا يقتل الصيد أثناء إحرامه، ولا يأخذ لقطة قال – تعالى –: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[١]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنه – أنّ النَّبِيَّ – عَلَيْهِ الصلاة والسَّلامُ – قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَّمَهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لا يُعَضَّدُ شَجَرُهُ، وَلا يُخْتَشُّ حَشِيشُهُ، وَلا يُرْفَعُ لُقَطَتُهُ إِلا لإِنْشَادِهَا، وَلا يُسْتَحَلُّ صَيْدُهُ))[٢]، فالحاج يقف عن إيذاء كل شيء، وله في ذلك حدود وضوابط، فهو يقف أولاً عند الحرم فلا يفكر في إحداث شيء لأن {مَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، ويقف عند الشجر فلا يقطعه لأنه ((لا يُعَضَّدُ شَجَرُهُ، وَلا يُخْتَشُّ حَشِيشُهُ))، ويقف عند الحجر الأسود – وهو حجر – فيقبله، وهو يتذكر حديث ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمٍ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ قَالَ: "قَبَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحَجَرَ ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ"[٣]... إلخ الأمور التي يقف المسلم أمامها محترماً لها، معظماً لها؛ لأنه مأمور به شرعاً.

٧. في الحج يتحقق معنى أن الأمة الإسلامية أمة واحدة: فمن خلال الحج يشعر المسلمون أنهم أمة واحدة، وهنا تسقط الشعارات الزائفة في تفريق الأمة، وجعلها أمم متناحرة، فترى موسم الحج يحقق معنى قول الله – تعالى –: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[٤]، فمهما تباعدت المسافات، ومهما حُكِمَ بتفريق الأمة؛ يأتي الحج ليبطل كل هذه الدعوات الزائفة.

٨. الحج جهاد: فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ–: ((الْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ))[٥].

٩. الحج يهدم ما قبله: فعن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال: ".. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي – ﷺ– فقلت: أبسط يمينك لأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: ((ما لك يا عمرو؟)) قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: ((تشترط بماذا؟)) قلت: أن يغفر لي، قال: ((أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله))..."[٦].

---

(١) سورة المائدة (٩٥).
(٢) المعجم الكبير للطبراني (ج١١/ص٣١٣).
(٣) صحيح البخاري (١٤٩٤).
(٤) سورة المؤمنون (٥٢).
(٥) سنن ابن ماجه (٢٨٩٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج٢/ص٣)، وقال: (حسن لغيره).
(٦) صحيح مسلم (١٧٣).

١٠. جزاء الحج المبرور الجنة: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: ((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))[١].

١١. في الحج اقتداء بمن سبقنا: فإن الحاج حين يذهب لأداء فريضة الحج فهو يتأسى بمن كان قبله، يتأسى بالنبي – ﷺ –، فعن جَابِر – رضي الله عنه – قال: "رَأَيْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ يَقُولُ لَنَا: ((لتأخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ))" [٢]، وفي الحج اقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – حين أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}[٣]، وكتب الله لمن شاء من عباده أن يلبوا هذا النداء رجالاً أو ركباناً، وفي الحج اقتداء بالصالحين، وتأسي بمن أمرنا الله أن نتأسى بهم، ونجعلهم قدوة حسنة لنا حيث قال – تعالى –: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ... إلى قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ.. }[٤].

هذه بعض آثار الحج في النفوس المؤمنة؛ إلا أن هذه الآثار لا تنطبق على المرء إلا إذا رجع من حجه وقد تغير سلوكه، ومعاملته؛ لأنه إذا علم قول النبي – ﷺ – ((الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))[٥]، وقوله – ﷺ –: ((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))[٦]، فإنه أدعى وأحرى أن يكون في أشد الحرص على أن ينال هذه المرتبة العظيمة.

نسأل الله أن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يوفقنا إلى كل خير، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

---

[١] صحيح البخاري (١٦٥٠).
[٢] صحيح مسلم (٢٢٨٦).
[٣] سورة الحج (٢٧).
[٤] سورة الممتحنة (٤-٦).
[٥] صحيح البخاري (١٦٥٠).
[٦] صحيح البخاري (١٤٢٤).

أثر أسماء الله الحسنى في تزكية النفس

أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك المؤمن ومواقفه

يقول الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأعراف ١٨٠)

ويقول: (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) الإسراء ١١٠

ويقول الرسول ـ ﷺ ـ: "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة " متفق عليه.

والإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته ومعرفتها، له الكثير من الآثار الطيبة والثمرات العظيمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، قال العز بن عبد السلام: "اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالا علية، وأقوالا سَنية، وأفعالا رضية، ومراتب دنيوية، ودرجات أخروية".

ومن هذه الآثار والثمرات المترتبة على معرفة الله بأسمائه وصفاته:

افتح قلبك حتى أحدثك عن نادي الكبار، أو عن دورة إيمانية ربانية مدتها ثلاثة شهور وتسعة أيام، أو مائة يوم إلا يوم واحد، إنها مدرسة الأسماء الحسنى، روى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة. وإني أحب لك تعيش في كل يوم مع واحد من هذه الأسماء الكريمة، تعيش معها حياة تنعش قلبك وروحك، وتدفع بجسدك للحركة والمبادرة في الخيرات دون تردد ولا تأخير. إنها أسماء الله؛ أثنى بها على نفسه، ونحن لا نحسن ثناءً عليه: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} [طه:٨]، {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} [الإسراء:١١٠]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:١١].

فيا من تبحث عن البركة في عمرك وعملك ومالك وولدك، تعال معي إلى مدرسة البركة الربانية: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الملك:١]، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون:١٤]، {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤]، {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:٧٨]. إن العيش مع الاسم الحسن؛ يرفع الهمّ والغمّ والحزن، فلا تبخل على نفسك وعلى أهلك كل يوم من أن تعيش مع واحد من الأسماء الحسنى حتى تحصيها كلها، وإحصاء كل اسم يمرّ بأربعة مراحل،

يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله: أحصاها يعني:

أولاً: حفظها.

ثانياً: عرف معانيها.

ثالثا: تخلَّق بمعانيها. وأضاف الإمام ابن القيم الرابعة فقال: أن يدعو الله تعالى بها. فالواجب علينا مع اسم الله اللطيف مثلاً؛ أن نحفظ هذا الاسم بكثرة تكراره؛ لأن الذي يتكرر في النفس يتقرر. وأن نعرف معنى اللطيف، فمن معاني اللطف الرباني: التخفيف والتيسير بالخلق: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤]. وأن ندعو الله تعالى باسمه اللطيف: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف:١٨٠] بأن نقول مثلاً: اللهم يا لطيف، اجعل بلاءنا خفيفاً، اللهم دبِّر لنا فإنَّا لا نُحسن التدبير، والطف بنا فيما جرت به المقادير. ثم أن نتخلق بمعاني هذا الاسم الكريم بأن نجمع اللطف والذوق الحسن والرقة واللين لخلق الله تعالى، بشرًا كان هذا الخلق أو حيوانًا أو شجرًا، وما أجمل أن يتسمى العبد اللطيف باسم عبد اللطيف، وهذه اللوازم تلزم الأسماء كلها. ونعيدها للأهمية: نحفظ الاسم الحسن من أسماء الله الحسنى، ونفهم معانيه، ونتخلق بهذه المعاني، وندعو الله تعالى بها تبركًا لنجد الإجابة على الفور إن صادف ذلك اسم الله الأعظم لعباد ربانيين: {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس:٦٢]. إن التزامنا بأسماء ربنا سبحانه وتعالى فيه صلاح لمعاشنا ومعادنا على حدٍّ سواء، وماذا نريد أكثر من أن نحصل على الحسنات والبركات في الدنيا والآخرة: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة:٢٠١]. – فاسم الله الرحمن واسمه الرحيم، لو جاءا في حياتنا لرحمنا بعضنا، ولو رحمنا بعضنا لرحمَنا ربنا، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن». – واسم الله العزيز يدعونا لأن نكون أعزة: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون:٨]. – واسم الله العلي يدعونا لأن نكون أصحاب علو ورفعة وشموخ، وعيب على مسلم يقبل على نفسه السفوف والانحطاط ثم يأتي ليقرأ معنا قول الله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى:١]. – واسم الله الحق يدعونا لأن ننحاز إلى الله تعالى وأن نتابع الحق ولو على رقابنا، فالحق أحق أن يتبع: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء:٨١]. – واسم الله الودود يدعونا لأن نتودد للمؤمنين؛ ليجعل الله تعالى لنا ودًا يوم الدين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا} [مريم:٩٦]. – واسم الله القدوس يدعونا لأن نحفظ أنفسنا من النجاسات المادية والمعنوية: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر:٣–٥]. – واسم الله الصمد يدعونا؛ لأن نصمد ونثبت في وجه التحديات، ولا نضعف لكثرة ما يطلب منا في سبيل أولادنا وأوطاننا وديننا من طلبات وواجبات. – واسم الله الواسع يدعونا لأن نوسّع آفاق تفكيرنا لنخرج به عن

ذواتنا الصغيرة؛ لنحل لغز آلام أمتنا المقهورة، ونفكّ السحر عن أجيال بال الشيطان في أذنها، فلم تنهض لفجر، ولم تتحرك لطلب النصر. – واسم الله القوي المتين يدعونا؛ لأن نطلب القوة في كل شيء؛ قوة البدن والروح والفكر: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠]، وقوة العلم والتعليم: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:٦٣]. – واسم الله الكريم يدعونا لأن ننفق وأن نعطي عطاء من لا يخشى الفقر: «أنفق بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً»، {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان:٩].

يا من تطلب كرم ربك والعطاء منه، هلا أظهرت بعض كرمك لخلقه من غير منٍ ولا أذى. – مع اسم الله الأول ينبغي أن تكون الأول في كل برٍّ ومعروف. – ومع اسم الله الآخر ينبغي أن تكون عند الشرور والفتن في آخر الصفوف، ولا يزال أقوام يتأخرون عن الطاعة حتى يؤخّرهم الله، ولا يزال أقوام يتقدمون إليها حتى يقدّمهم الله. – مع اسم الله العفو ينبغي أن تصفح عن خلق الله تعالى، وأن تقبل عذرهم وتتجاوز عن زلاتهم وتنسى تقصيرهم في حقك؛ لأنه من صفح عن الخلق صفح عنه الخالق: {وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} [البقرة:٢٣٧]. – مع اسم الله السلام نكثر من طرح السلام على إخواننا، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يغدو إلى السوق يومًا دون أن يشتري شيئًا، فلما سألوه عن سرّ ذلك قال: "إنما نغدو إلى السوق يومًا من أجل السلام"، لكنه سلام مع المؤمنين الموحدين، لا سلام مع الكفرة المعتدين من اليهود والصليبيين. – مع اسم الله المنتقم الجبار نقف في وجوه المجرمين: {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ} [الشورى:٤١]، {فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ} [البقرة:١٩٤]، {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال:١٢]، {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} [النور:٢]. – نحن باسم الله نحيا ونعبد، وإن غفلنا تبنا ورجعنا. – باسم الله نبدأ كل أمر من الأمور. – بسم الله نقرأ القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:١]. – وباسم الله نصلي. – باسم الله نأكل ونشرب. – باسم الله نداعب الصغار ونعاشر النساء. – باسم الله نقود السيارة والطيارة وسفينة النجاة: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود:٤١]. – باسم الله نكفّن موتانا. – وباسم الله نصلّي عليهم، وباسم الله يُدفنون. إنها الأسماء الحسنى معنا من الميلاد إلى الوفاة، أو الاستشهاد، فهلا جددنا العلاقة معها لنفتح بها البلاد والعباد. – باسم الله نضرب عدو الله العظيم لأنه: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ} [الأنفال:١٧]. – باسم الله الغني نطلب غنى الله، ونُغني عباده عن المسألة. – باسم الله المعطي نطلب عطاء الله ونعطي عباده من عطائه. – باسم الله الهادي نطلب هدى الله ونسعى لأن نكون حملة الهداية لخلق الله: "اللهم اجعلنا هداة

مهديين، ولا تجعلنا ضالين ولا مضلين". – باسم الله الشكور نشكر به ربنا، ونسعى لشكر خلق الله على الإحسان؛ لأنه: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». – باسم الله البديع نتدبر بديع خلق ربنا، ونسعى إلى الإبداع والتقدم في كل مصالح الحياة. وإذا شرح الله صدرك وأحصيت أسماء ربك الحسنى حفظًا وفهمًا وعملاً ودعاءً؛ فقد أحصيت العلوم كلها، يقول ابن القيم: "العلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد:١٩]". أما الدعاء بالأسماء الحسنى فإننا نخصص لكل اسم حاجة تليق به؛ روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في دعاء الكرب: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...» هذه المقدمة ولك أن تدعو بعدها بما شئت. اللهم يا رحيم ارحمنا، ويا اللطيف الطف بنا، ويا ذا العفو اعفُ عنا، ويا متين اشدد أزرنا، ويا حفيظ احفظنا، ويا فتاح افتح علينا، ويا شافي اشفنا، ويا رزاق ارزقنا، ويا وليّ تولَّ أمرنا، ويا عليُّ ارفع شأننا.

أثر التواضع في تزكية النفس

قال الله تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: ٣٧]، فقد دعت الآية الكريمة إلى خُلق إنسانيّ عظيم، وهو التواضع وتجنُّب التكبُّر على الآخرين، ويُعرَّف التواضع بأنَّه أن يتعامل الإنسان مع غيره من الناس بلطف ولباقة، فيحرص على مراعاة مشاعرهم والابتسامة في وجوههم ومعاملتهم بإحسان وتوجيه الحديث إليهم برقة وبنفس بشوشة مهما كان منصبه ومهما كانت مكانته الاجتماعيَّة .

التواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد، قال تعالى: فبما رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك آل عمران / ١٥٩، وقال تعالى: وإنك لعلى خلقٍ عظيم القلم / ٤، وهو قيامه ﷺ بعبودية الله المتنوعة، وبالإحسان الكامل للخلق، فكان خلُقه ﷺ التواضع التام الذي روحه الإخلاص لله والحنو على عباد الله، ضد أوصاف المتكبرين من كل وجه .

" المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي " (٥ / ٤٤٢، ٤٤٣) .

وللتواضع أسباب لا يكون المسلم متخلقاً به إلا بتحصيلها، وقد بيَّنها الإمام ابن القيم بقوله:

التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله، وتعظيمه، ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو " التواضع "، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقّاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خلُق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبُّه، ويكرمه، ويقربه ." الروح " (ص ٢٣٣) .

وقد جاء في ثواب التواضع الفضل الكبير، ومنه:

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: " ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله " .

رواه مسلم (٢٥٨٨) وبوَّب عليه النووي بقوله " استحباب العفو والتواضع.

قال النووي:

قوله ﷺ: " وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ": فيه وجهان: أحدهما: يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويجل مكانه .

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا .

قال العلماء: وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم ." شرح مسلم " (١٦ / ١٤٢) .

والتواضع يكون في أشياء، منها:

١. تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً .

قال ابن القيم:

فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء هرباً من العبودية، وتتوقف عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه: فقد تواضع للعبودية .

" الروح " (ص ٢٣٣) بتصرف .

٢. تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه .

قال ابن القيم:

فكلما شمخت نفسُه: ذَكَر عظمة الرب تعالى، وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخْبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس . (أي يستلزم التواضع لأمر الله ونهيه، وقد يتواضع لأمر الله ونهيه من لم يتواضع لعظمته)

والمتواضع حقيقة: من رزق الأمرين، والله المستعان .

" الروح " (ص ٢٣٣) .

٣. التواضع في اللباس والمشية .

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: " بينما رجل يجرُّ إزاره من الخيلاء خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " .

رواه البخاري (٣٢٩٧) .

ورواه البخاري (٥٤٥٢) ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة، ولفظ البخاري: " بينما رجل يمشي في حلَّة تعجبه نفسه مرجِّل جمُّته إذ خَسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة " .

يتجلجل: ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً .

مرجل جمته: الترجيل هو تسريح الشعر ودهنه .

والجمة: هي الشعر المتدلي من الرأس إلى المنكبين .

٤. التواضع مع المفضول فيعمل معه ويعينه .

عن البراء بن عازب قال كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب ولقد رأيته وارى التراب بياض بطنه يقول: لولا أنت ما اهتدينا نحن ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا إن الألى وربما قال الملا قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا أبينا يرفع بها صوته .

رواه البخاري (٦٨٠٩) ومسلم (١٨٠٣) .

٥. التواضع في التعامل مع الزوجة وإعانتها .

عن الأسود قال: سألتُ عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله – تعني: خدمة أهله –، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة .

رواه البخاري (٦٤٤) .

قال الحافظ ابن حجر:

وفيه: الترغيب في التواضع وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله .

" فتح الباري " (٢ / ١٦٣) .

٦. التواضع مع الصغار وممازحتهم

عن أنس قال: كان النبي ﷺ أحسنَ الناس خلُقاً، وكان لي أخ يقال له " أبو عمير " – قال: أحسبه فطيماً – وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير .

رواه البخاري (٥٨٥٠) ومسلم (٢١٥٠) .

قال النووي:

" النُّغيْر " وهو طائر صغير .

و" الفطيم " بمعنى المفطوم .

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة جدّاً منها: ... ملاطفة الصبيان وتأنيسهم ، وبيان ما كان النبي ﷺ من حسن الخلُق وكرم الشمائل والتواضع .

" شرح مسلم " (١٤ / ١٢٩) .

٧. التواضع مع الخدم والعبيد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه وليَ حرَّه وعلاجَه .

رواه البخاري (٢٤١٨) و (٥١٤٤) ومسلم (١٦٦٣) .

ومعنى " ولي حرَّه وعلاجه ": أي عانى مشقة صُنع الطعام والقيام على تقديمه، وفي رواية مسلم " وليَ حرَّه ودخانه " .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتواضعين لعظمته .

أثر التواضع على الفرد والمجتمع

أثر التواضع على الفرد:

– تزكية النفس البشريَّة، وتهذيبها على الأخلاق الحسنة التي يحبها الله عز وجل، ويرضى عنها. – رفع مكانة الفرد بين الناس، فينال محبتهم واحترامهم ويجدهم حوله في كل الظروف.

– تطهير الفرد من الأخلاق الذميمة وجبله على خشية الله سبحانه وتعالى والحرص على طاعته. الاتصاف بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واتباع سنة سيدنا محمد ﷺ. تهيئة الفرد للوصول إلى النجاح والارتفاع في المناصب وتحقيق الأهداف بطريقة أكثر سهولة. بناء الكثير من العلاقات الاجتماعيَّة الناجحة، وتوسيع دائرة المعارف، وبالتالي حصوله على نجاحات أكثر.

أثر التواضع على المجتمع:

– تحقيق مفهوم التكافل الاجتماعيّ، والتخلُّص من التفرقة بين طبقات المجتمع المختلفة.

– نشر المودة والمحبة بين أفراد المجتمع الواحد، فتسمو العلاقات بأكملها نحو الخير.

– حماية المجتمع من وقوع الخلافات، وارتكاب الجرائم المختلفة بسبب الحقد الطبقيّ.

– ضبط النفوس البشريَّة وتهذيبها، وخلق نوع من القناعة الداخليَّة والرضا.

– الوصول إلى النجاحات بطريقة أسرع والتخلُّص من النزاعات الناتجة عن الاختلاف.

– بثّ روح التعاون بين الناس ومنحهم القدرة على التسامح مع الآخرين والعفو عنهم.

أثر الخوف من الله في تزكية النفس

إن من أعظم المهمات التي بعث لأجلها النبي ﷺ تزكية النفوس وتطهيرها، كما قال الله عز وجل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) [الجمعة:٢].

وقد جعل الله تعالى فلاح العبد منوطًا بتزكية نفسه، فقال سبحانه وتعالى بعد أحد عشر قسمًا متواليًا: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس:٩، ١٠].

ومما لا شك فيه أن من أهم الوسائل لتزكية النفوس هو تربيتها على الخوف من الله عز وجل. قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

"ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الخوف، وهي من أجلِّ منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد".

وقال أيضًا رحمه الله:

"القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر".

وإذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها؛ إذ الخوف سوط الله الذي يقوِّم به الشاردين عن بابه ويصدهم به عن نار الجحيم والعذاب الأليم.

قال الفضيل رحمه الله: من خاف الله دله الخوف على كل خير.

واعلم أن الخوف إذا فارق القلب خَرِب، وتجرأ صاحبه على المعاصي.

وكيف لا يخاف العبد في هذه الدار وهو يعلم أنه مقبل على أهوال عظام:

فهو لا يدري بماذا يختم له.. قال سهل: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...) [المؤمنون:٦٠].

ولما احتضر سفيان الثوري – رحمه الله – بكى بكاءً شديدًا. فقيل له: عليك بالرجاء؛ فإن عفو الله أعظم من ذنوبك. فقال: أو على ذنوبي أبكي؟! لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

ثم هو مقبل على القبر وسؤال الملكين، ولا يدري أيثبت أم لا؟.. جلس النبي ﷺ على شفير قبر فبكى ثم قال: "أي إخواني لمثل هذا فأعدوا".

ثم إذا أعمل فكرة في أهوال الحشر، والميزان، والصراط، وانصراف الناس إما إلى جنة وإما إلى نار لاستولى الخوف على قلبه فحجزه عن الكثير من المحرمات. فكل من خاف شيئًا فر منه، لكن من خاف الله فر إليه: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) [الذاريات:٥٠]

درجات الخوف

ذكر بعضهم أن للخوف درجات:

الدرجة الأولى: خوف العقوبة:

وهو الخوف الذي يصح به الإيمان، وهو خوف العامة، وهذا الخوف يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة، وترحل هذا الخوف من القلب علامة ترحل الإيمان منه.. قال الله تعالى: (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران:١٧٥].

الدرجة الثانية: خوف المكر:

فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال، فبُدِّل بالأُنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضًا، وبالتقريب إبعادًا.

وأعلى الدرجات: خوف العبد الحجاب عن الرب:وهذا خوف العارفين.

وكلما كان العبد أعلم بالله وأعرف بصفاته سبحانه كلما كان خوفه أشد.. قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر:٢٨]. ولهذا وجدنا سيد الخلق محمدًا ﷺ أخوف الناس، فقد قيل له: يا رسول الله شِبْتَ! قال: "شيبتني هود وأخواتها". وهو ﷺ الذي قال عن نفسه: "إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية".

وقد ذكر بعض العلماء أن الخوف له قصور، وإفراط، واعتدال، فالمحمود منه هو الاعتدال والوسط، وذلك الذي يحمل صاحبه على فعل الواجبات وترك المحرمات، فإن زاد بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والكف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات؛ كان أفضل وأحسن.

وأما القاصر فذلك الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عن وجود سبب من الأسباب كسماع آية أو موعظة أو غير ذلك، فتفيض الدموع ويوجل القلب، ثم إذا زال السبب عاد لما كان عليه من الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى.

وأما الإفراط في الخوف بحيث يخرج صاحبه إلى اليأس والقنوط أو يورث مرضًا أو همًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المحبوبة لله، فإن ذلك مذموم غير محمود.

رزقنا الله خشيته ومخافته في السر والعلن،

اثر خشية اللّه في تزكية النفس

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

معنى الخشية في اللغة:

"الخشية: الخوف"[١] .

معنى الخشية في الاصطلاح:

خشية وخوف تكون في القلب، تظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون[٢].

الفرق بين الخوف والخشية:

الخوف: هرب القلب مِن حلول المكروه عند الشعور به.

الخشية: انجماع وانقباض وسكون، والخوف حركة، والخشية أخصُّ من الخوف[٣].

إن خشية الله تعالى من أجلِّ أعمال القلوب التي تقوم عليها العبادة، فهي من العبادات القلبية التي تُعين المؤمن على مراقبة الله في الخلوة، والخشية في حال الغيبة عن الناس أعلى مراتب المراقبة لله، وكلما كان العبد أكثر علمًا ومعرفةً بالله عز وجل، اشتدَّت خشيته من الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فمن آمَن بقدرة الله وقوته، وأنه شديد ذو انتقام، وأنه خلَق الجنة والنار، أورثه ذلك خوفًا وخشيةً منه، والاستعداد للقاء من يخافه ويخشاه، ويجازي الله أهل خشيته يوم القيامة برضاه عنهم ودخول جنته؛ قال تعالى ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨][٤].

فنحن بأمس الحاجة لمدارسة هذا الموضوع ومراجعته وتدبر النصوص الواردة فيه تعظيماً لما عظمه الله تعالى في هذه العبادة القلبية، فالفتن تحيط بنا من كل جانب خصوصاً ذنوب الخلوات التي زينها شياطين الإنس والجن.. والعلاج الأساس في مواجهة هذه الذنوب إقامة عبادة خشية الله تعالى بالغيب فتمنعُه بإذن الله من تعاطي المحرمات بالنظر أو السماع أو اللسان أو الطعام أو المشي ..الخ.

ومن آثار الخشية: قيام العدل والإنصاف والصدق والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

[١] تهذيب اللغة ٧/ ١٩٤، معجم مقاييس اللغة ٢ /١٨٤.

[٢] انظر: أضواء البيان ٧ /٥٤٧.

[٣] انظر: مدارج السالكين ١ /٥٠٨.

[٤] انظر: أضواء البيان ٩ /٥٥، تفسير السعدي ٦٨٨، التحرير والتنوير ٣٠ /٧٧، مدارج السالكين ١ /١٥٦.

وإذا أردت تحقيق هذه العبودية فلتكن حالك في الخلوة أفضلَ عند الله من حال مشاهدة الناس، ولا تجعل اللهَ تعالى أهونَ الناظرين إليك.

ومن آثار الخشية: مغفرة الذنوب ودخولِ الجنة والأجرِ الكبير.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} (الملك ١٢).

وقال تعالى:{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}{ (ق ٣٣).

وقال الله تعالى في وصف عباده المتقين:{الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ}{ (الأنبياء٤٩).

وقال الله تعالى في بيان صفات الذين يستجيبون لنذارة الرسول:{إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ} (فاطر ١٨).

ومن خاف وقوفه أمام الله يوم القيامة للحساب كانت الجنّةُ مأواه، قال الله تعالى:{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} (النازعات ٤٠-٤١).

وقال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} (الرحمن ٤٦).

وخشية الله بالغيب هي علامة الصدق والإيمان والعلم بالله تعالى بأنه السميع البصير العليم الذي لا تخفى عليه خافية، وكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخشى، ولذلك رفع الله تعالى مقام الخشية، فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} (فاطر ٢٨).

واعلم أن الله تعالى يبتلي عبده فتَدْنُوا مِنه المعصية، ويَسْهُلُ عليه اقترافها حال بُعْدِ أنظار الناس عنه؛ ابتلاءً له من الله تعالى؛ هل عبدُه يَخْشَى اللهَ تعالى بالغيب أو لا يخشاه إلا بحضور الناس فقط؟.

فانتبه لذلك دائماً حينما تكون خالياً، واجعل نُصب عينيك قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المائدة ٩٤).

ومن الأعمال التي لا يراها الناس أعمالُ القلوب ؛ فاحذر معصية الله بقلبك. وأعظمها الشرك ؛ فلا يتعلّق قلبُك ولا يخشى ولا يرجو إلا اللهَ تعالى وحده.

ومن معاصي القلب: الكِبرُ، والإعجابُ بالنفس، والحسد، والغرور، والرياء، وحبُ السمعة والظهور. ومن علامات مرض القلب بالشهوات: الطمع بغير ما أحل الله تعالى، قال الله تعالى:{ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ

الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} (الأحزاب ٣٢). فدلَّ على أن الطَّمَعَ بغيرِ ما أحلَّ اللهُ علامةٌ على مرضِ القلب، فاحذر كلَّ الحَذَرِ من هذه العلامة الدالة على مرض القلب، ولا رادع لها إلا خشية الله بالغيب.

فما أعظم مقام عبودية قلب المؤمن لله وحده وقد طَهَّره الله من الشرك، ومن التعلق بالدنيا، ومن أمراض الشبهات والشهوات.

قال نبينا ﷺ:" إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجَ مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:"التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات".

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:".. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلُحَت صَلُحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فسدت فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه، ألا وهي القلب".

وقال الله تعالى:{ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج ٣٢).

وقد كان رِضَى الله تعالى وثناؤه على أهل البيعة تحت الشجرة لعلمه بحقيقة ما وقر في قلوبهم، قال الله تعالى:{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} (الفتح ١٨).

ولذلك كان من المشروع في حق المؤمن أن يدعو بدعاء الراسخين في العلم، قال الله تعالى:{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ، رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ } (آل عمران ٨).

وكان من دعاء النبي ﷺ: "اللهم مصرِّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك". أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهما.

ومن أهم أسباب طمأنينة القلب ذكر الله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد ٢٨).

ومن أنواع الانحراف في الخشية التي حذرنا الله تعالى منها تقديم خشية الناس على خشية الله؛ أو أن يخشى الناس كما يخشى الله، فيسكتُ عن الحق، أو يَتَكَلَّم بالباطل خشيةَ الناس، أو خوفاً من ردة فعل السلطان، أو ضغط أهل الباطل في وسائل الإعلام.. فيسكت عن بيان الحق أو يسكت عن النهي عن الباطل.

وأعظَمُ من ذلك أن يتكلَّم بالباطل خوفاً منهم. والصواب أن يُبَيِّن الحقَّ بالأسلوبِ الأمثل ولا يخاف لومة لائم. قال الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (المائدة ٥٤).

وقال الله تعالى:{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} (النساء٧٧).

وسبب خوف بعض الناس من غير الله هو الشيطان الذي يوسوس لهم ويخوفهم من أوليائه الظلمة. فالحذر الحذر من ذلك وإنما الواجب أن يُخْلصِ عبادة الخوف لله وحده. قال الله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (آل عمران ١٧٥). وقال الله تعالى:{فلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} (المائدة ٤٤). وقال تعالى:{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} (الأحزاب٣٩).

اللهم أصلح قلوبنا وطهرها وارزقنا خشيتك بالغيب والشهادة. والحمد لله رب العالمين.

الآثار الإيمانية المترتبة عند الخشية من الله:

١) الخشية من الله خلق لا يتَّصف به إلا عباد الله المتقون وأولياؤه المحسنون.

٢) الخشية من الله تُبعد الإنسان عن الوقوع في المعاصي والسيئات.

٣) الخشية من الله سبب لإخلاص العمل لله تعالى؛ قال النبي ﷺ: (أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك)[1].

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسلام ما هو وبيان خصاله ١ /٤٠ ، حديث رقم (١٠).

أثر الصبر في تزكية النفس

إنَ أهم ما يُلزم على الإنسان في هذه الحياة بعد العلم بحقيقتها وآفاقها وغاياتها من خلال الإيمان بالله سبحانه ورسله الى خلقه والدار الآخرة هو توعيته لنفسه وتزكيته إياها، بتحليتها بالفضائل وتنقيتها من الرذائل، حتى يتمثل علمه في عمله واعتقاده في سلوكه، فيكون نوراً يستضيء به في هذه الحياة ويسير بين يديه وبإيمانه في يوم القيامة.

لا ينبغي ان يتكاسل المرء ويصطنع لنفسه المعاذير، بل عليه أن يكون صبوراً على القيم والممارسات الفاضلة، قال سبحانه وتعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) وليتذكر ما ورد في القران الكريم والاثر من أحوال الصالحين وصبرهم على العبادة ومكارم الاخلاق.

ولا يخلطن المرء بين الكبت والصبر، فإن الكبت خديعة للنفس وصدٌّ لها من غير وجه حكمة أو فضيلة، وأما الصبر فتبصرة ثبات طلباً للحكمة ورجاء للفضيلة.

ما أشد الحاجة إلى الصبر، لاسيما في هذه الأزمان التي اشتدت فيها الغربة، وكثرت فيها الفتن، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر.

إن هذه الدنيا دار بلاء، والآخرة دار جزاء، فلا يسلم المؤمن في هذه الدار الدنيا من المصائب، فمن فيها لم يصب بمصيبة؟!

المرء رهن مصائب لا تنقضي.. ... ..حتى يوسد جسمه في رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يلقى الردى في غيره.. ... ..ومعجَّل يلقى الردى في نفسهِ

تعريف الصبر:

الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به صاحبه من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل.

وقد عرفه بعضهم بأنه: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم، وشق الجيوب، ونحو ذلك.

فضيلة الصبر والصابرين:

إن الله تعالى قد جعل للصابرين ما ليس لغيرهم؛ قال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة:١٥٥-١٥٧].

والمصيبة كل ما يؤذي الإنسان ويصيبه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: نعم العدلان، ونعمت العلاوة للصابرين. يقصد بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى.

وقال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر:١٠].

-كما فاز الصابرون بمعية الرحمن، (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال:٤٦]، فهو معهم يثبت قلوبهم ويحوطهم بعنايته وتأييده.

- والصابرون هم أهل الإمامة في الدين: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) [السجدة:٢٤].

- وهم أهل محبة الله: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران:١٤٦].

- ثم هم يفوزون بالجنة و النجاة من النار: (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) [المؤمنون:١١١].

- وما من مصيبة تصيب العبد إلاَّ كفر الله بها عنه.

وإليك أيها القارئ الكريم هذه الطائفة العطرة من أقوال المصطفى ﷺ في فضيلة الصبر والصابرين:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر". [رواه البخاري ومسلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من يرد الله به خيرًا يُصِبْ منه" أي يصيبه ببلاء. [رواه البخاري ومالك]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "ما من مصيبة تصيب المؤمن إلاَّ كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يُشَاكُها". [رواه البخاري ومسلم].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا"[رواه البخاري وأبو داود].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي. قال: "إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن

شئت دعوتُ الله أن يعافيكِ". فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله لي ألاَّ أتكشف، فدعا لها". [رواه البخاري ومسلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الجنة ثم احتسبه إلاَّ الجنة". [رواه البخاري].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة". [رواه البخاري والترمذي].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلاَّ أخلف الله خيرًا منها". فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.

السلف الصالح والصبر*

قال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلاَّ كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه.

وقال يونس بن زيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن؛ ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم يصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه.

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) [الرعد:٢٤]. قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عمَّا نهو عنه.

وقالوا: الحيلة فيما لا حيلة فيه الصبر.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لله عز وجل إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به.

وقالت رابعة: إن الله عز وجل إذا قضى لأوليائه قضاءً لم يتسخَّطُوه.

وقال الحسن: من رضي بما قسم له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه.

وقال بعضهم: من لم يرضى بالقضاء فليس لحمقه دواء.

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر – جمع بعير – كثيرة فقال:

لاَ والذي أنا عبدٌ في عبادَته.. .... ..لولا شَماتَةُ أعداءٍ ذَوي إحَنِ
ما سرَّني أنَّ إبلي في مَبارِكِها.. .... ..وأنَّ شيئًا قضاه الله لم يكُنِ

دوافع تعين على الصبر:*

هناك أمور كثيرة تعين على الصبر، وسنسردها سردًا بغير ذكرٍ لأدلتها خشية الإطالة، ومنها:

١- تدبر الآيات والأحاديث الواردة في فضيلة الصبر.

٢- اليقين بأنه لا يقع شيء إلا بقدر الله تعالى.

٣- تذكر كثرة نعم الله عليه.

٤- العلم بأن الجزع وقلة الصبر لا ترد المصيبة.

٥- استحضار الأجر والثواب، والتفكر في عاقبة الصبر.

٦- العلم بأن اختيار الله له أحسن من اختياره لنفسه.

٧- استحضار أن أشد الناس بلاءً الأنبياء والصالحون.

٨- أن يعلم أن زمن البلاء ساعة وستنقضي.

٩- مطالعة سير السابقين من الصالحين، ودراسة مواقفهم المباركة في الصبر ليأنس بهم.

نسأل الله أن يجعلنا من الصابرين..

للاستزادة:*

- عدة الصابرين؛ للإمام ابن القيم رحمه الله.
- مواقف إيمانية؛ الشيخ. أحمد فريد.
- صلاح الأمة؛ الشيخ. سيد حسين عناني.
- الأخلاق الإسلامية؛ الشيخ. عبد الرحمن حنبكة الميداني.

أثر الصدق في تزكية النفس

الصدق من أجَلِّ الأخلاق وأعظمها، وهو منبع كثير من الفضائل الخلقية حيث يتشعب منه الأمانة والعفة والوفاء والشجاعة وغيرها، وهو غير قاصر على صدق القول بل يشمل صدق الفعل والحال، كما قال المحاسبي: "الصدق في ثلاثة أشياء لا يتم إلا بها صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام". وصدق الحال أن يتطابق ما بين ظاهر المرء وباطنه، فلا يكون مرائيًا أو متظاهرًا بما ليس حقيقة واقعة فقد قال المصطفى ﷺ: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور». وصدق الفعل هو مطابقة فعل الإنسان لقوله، فإن وعد وفى، وإن استعد لأمر أمضاه. وكذب الفعل أشنع من كذب القول؛ لأنه يظهر فيه القصد والعمد بشدة كما فعل إخوة يوسف وجاءوا على قميصه بدم كذب. وقد وردت مخالفة الفعل للقول في معرض التحذير والذم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:٢]. وصدق القول هو الأشهر والأظهر، فكل قول خالف الحقيقة فهو كذب {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [يونس:٦٩]. والصدق له مكانة عظيمة في الإسلام فبه "تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال" (تهذيب مدارج السالكين ص٣٢). وقد أمر الله به المؤمنين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٩]، ووعدهم بأجزل المثوبة عليه فقال: {لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} [الأحزاب:٢٤]، وبيّن لهم أن عاقبته في الدنيا خير: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [محمد:٢١]، ونوّه بأثره في الآخرة فقال: {هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [المائدة:١١٩]. والصدق هو الخُلق الذي اتصف به الرسول ﷺ قبل بعثته حتى لُقِّب بالصادق الأمين، وقد أوضح عليه الصلاة والسلام آثار كل من الصدق والكذب النفسية فقال: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة» (رواه الترمذي)، فالصادق مطمئن النفس منشرح الصدر عالم بأنه أخبر بالحق ونطق بالصدق فلا يخشى أن ينكشف شيء على خلاف ما قاله، وعنده توافق بين ظاهره وباطنه فلا تناقض ولا تعارض، بينما الكذب يُبقي صاحبه في شك وحيرة واضطراب فلا هو مطمئن ولا متوافق مع نفسه لأنه يعلم أنه قال أو فعل خلاف الحق، ولا هو مرتاح في تعامله مع الآخرين، لخوفه أن ينكشف أو يفتضح أمره، وإضافة لذلك بيّن عليه الصلاة والسلام مآل كل منهما فقال: «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى

الصدق حتى يُكتب عند الله صِدّيقًا، والكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً» (متفق عليه). كما بيّن أثرهما في التعامل بين الناس فقال شأن المتبايعين: «فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما» (متفق عليه).

الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

ويقال: صدق فلان في الحديث صدقًا: أخبر بالواقع[1] .

والصدق يدعو إليه العقل والشرع، بخلاف الكذب. ومن هنا جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة، حتى تصل إلى درجة التواتر، ولا يجوز ذلك في الأخبار الكاذبة[2].

والصدق من الأخلاق الأساسية التي يتفرع عنها غيرها، يقول بعض العلماء: «واعلم –رحمك الله– أن الصدق والإخلاص: أصل كل حال، فمن الصدق يتشعب الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس، وعن الإخلاص يتشعب اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم... فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقًا، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام»[3].

وإنما كان الصدق فضيلة؛ لأنه أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، ولولاه ما بقى المجتمع؛ ذلك لأنه لابد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض، ومن غير التفاهم لا يمكن أن يتعاونوا، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما في نفسه من الحقائق إلى الآخرين، وهذا هو الصدق[4].

وقد حث الإسلام على الصدق وبيّن فضائله، وأكد أنه من صفات النبوة، يقول تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا } [مريم:٤١]، ويقول الله تعالى: }وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا } [مريم:٥٤] وأمر عباده المؤمنين بالصدق، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة:١١٩].

ومن أهم فضائل الصدق:

١– أن الصدق في القول يؤدى إلى الصدق في العمل والصلاح في الأحوال:

---

[1] المعجم الوسيط، ٥٣٠/١
[2] أدب الدنيا والدين، الماوردى، ص ٢٦٠-٢٦١.
[3] رسالة المسترشدين، المحاسبى، ص ١٧١.
[4] كتاب الأخلاق، أحمد أمين، ص ١٩٩-٢٠٠.

يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب:٧٠-٧١]. فالصدق في القول يؤدى إلى الصدق في الفعل، وهذا هو العمل الصالح[١].

٢- الصدق يهدى الإنسان إلى البر والخير:

يقول – ﷺ-: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[٢].

والبر الذى يهدى إليه الصدق هو الذى بيّنه الله – عز وجل – في قوله تعالى: { لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة:١٧٧].

٣- الصدق فيه النجاة:

يقول تعالى: { قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [المائدة:١١٩]. أى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة.

وفى الحديث: «تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما– أن رجلا جاء إلى النبى – ﷺ – فقال: يا رسول الله، ما عمل الجنة؟ قال: «الصدق، إذا صدق العبد بر، وإذا بر آمن، وإذا آمن دخل الجنة»، قال: يا رسول الله، وما عمل النار؟ قال: «الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار»[٤].

٤- الصدق فيه الربح والفوز:

(١) الأخلاق الإسلامية، د. عبد اللطيف العبد، ص ١٥١-١٥٢.
(٢) مكارم الأخلاق، ابن أبى الدنيا، ص ٤٥، رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود.
(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت عن منصور بن المعتمر مرسلاً، وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير، وكنز العمال، ٣٤٥/٣.
(٤) رواه أحمد، وانظر الترغيب والترهيب، ٥٣/٤.

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما: «أربع من كن فيه ربح: الصدق، والحياء وحسن الخلق، والشكر».

وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما– أن النبى – ﷺ – قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة»[1].

مراتب الصدق:

أشار الإمام أبو حامد الغزالى[2] إلى أن للصدق مراتب عديدة نلخصها فيما يلى:

١– صدق اللسان: وذلك لا يكون إلا في الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار ماضيًا أو مستقبلا، ويندرج تحته الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأشهرها.

٢– الصدق في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو ألا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى. فإن مازجه شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، ويجوز أن يسمى صاحبه كذابًا.

٣– صدق العزم: فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه، إن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها. فهذه عزيمة تحتاج إلى صدق؛ لأنه بمنزلة التمام والقوة لها كيلا يضعف أو يتغير وقت التنفيذ. ولذلك روى الإمام مسلم عن سهل بن حنيف –رضى الله عنه– أن النبى – ﷺ – قال: «من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه».

٤– الوفاء بالعزم: ذلك أن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم. لكن إذا حقت الحقائق وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، ولم يتفق الوفاء، ولهذا مدح الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذى وفوا بعزائمهم فقال سبحانه { رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [الأحزاب:٢٣].

٥– الصدق في الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، وعلى المسلم هنا أن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر.

٦– الصدق في مقامات الدين: وهو أعلى الدرجات وأعزها، ومن أمثلته: الصدق في الخوف، والرجاء، والتعظيم، والزهد، والرضا، والتوكل، وحب الله تعالى، ورسوله – ﷺ.

آثار الصدق ونتائجه:

للصدق آثار عظيمة، ونتائج جليلة منها[1]:

---

[1] رواه الطبرانى والحاكم وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.
[2] إحياء علوم الدين، ٣٨٧/٤-٣٩٣.

١– للصدق رابطة قوية بالإيمان، فالصادق قوى الإيمان، والكاذب لا إيمان له، فقد سأل الصحابة رسول الله –ﷺ–: يا رسول الله، أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: لا[٢].

٢– الصدق يجعل صاحبه قليل الكلام، محتاط في استعماله، حتى لا يقع في زلات كثيرة، فإذا وجدت الرجل يكثر الكلام، فاعلم أنه على خطر عظيم، قال رسول الله –ﷺ–: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[٣].

٣– الصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة؛ لأنه ثابت لا يتلون، ولأنه واثق لا يتردد، ولذلك جاء في تعريفات الصدق: «القول بالحق في مواطن الهلكة»[٤].

٤– من آثار الصدق –أيضًا– تفريج الهم، والنجاة من الكرب، كما في قصة كعب بن مالك – رضى الله عنه– وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، فقد عاقبهم رسول الله –ﷺ– بنهى المسلمين عن كلامهم خمسين يومًا، وقد شق ذلك عليهم، واستغل أعداء الإسلام هذه الفرصة، فاتصل ملك غسان بكعب، يعرض عليه أن يلجأ إليه، فيواسيه، ويترك الإسلام، فرفض كعب، ولما تاب الله عليهم ذهب إلى رسول الله –ﷺ– وقال له: «يا رسول الله إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت»[٥].

٥– من آثار الصدق –أيضًا– الهدوء النفسى والطمأنينة القلبية، يقول النبى –ﷺ–: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[٦]. إن الإسلام لا يعلِّم المسلمين فضيلة الكلمة الصادقة وحسب، ولكنه يعلمهم أيضًا كيف يجب أن يكون تلقيهم لها، وكيف يجب أن تكون كفالتهم لها ولأهلها، وكيف يجب أن يكون مسلكهم إزاء الكذب والتضليل.

ولا يدين الإسلام الكذب وحسب، ولكنه يميز بين ضروب من الرذائل، ودرجات من الإثم، كلها تتصل بانتهاك المعرفة الصحيحة[٧]. والمسلم الحق هو الذى لا يستحل الكذب أبدًا، مهما نال بسببه من مكاسب، فما قيمة مكسب دنيوى رخيص يغضب الله عز وجل!!

---

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص ١٦٥-١٦٦.
(٢) موطأ مالك، ٩٩٠/٢.
(٣) رواه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول حديث رقم: ٨١٨٩.
(٤) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٩٨.
(٥) صحيح مسلم، كتاب التوبة، ٢١٢٠/٤.
(٦) الترغيب والترهيب، ٥٥٨/٣..
(٧) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ١٣٧-١.

وعلى الذين يحلفون كذبًا لترويج سلعة ما، أن يتوبوا إلى ربهم، ويعلموا أن هذا حرام وباطل، وأن بركته ضائعة. وعلى أصحاب المهن والصنائع أيضًا، أن يستغفروا ربهم من تلك الذنوب التي يقعون فيها، نتيجة المماطلة وخلف الوعد وتغيير العقود والعهود. ومثلهم –أيضًا– أصحاب الولايات والمناصب، الذين يصرحون بأنهم سيفعلون كذا وكذا، وتتعلق أفئدة الجمهور بهم، ثم لا يفوا بمعشار ما أعلنوا. وكان بإمكانهم أن يؤجلوا الإعلان بعد العمل، حتى لا تضعف ثقة الجمهور فيهم، ولا يقتدى بهم العامة، فيظهر الفساد في البر والبحر. ــــ

أثر الإستغفار في تزكية النفس

الاستغفار هو طلب المغفرة، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها، أي أن الله عز وجل يستر على العبد فلا يفضحه في الدنيا ويستر عليه في الآخرة فلا يفضحه في عرصاتها ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضله ورحمته .

وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن، فتارة يؤمر به كقوله تعالى (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(المزمل/٢٠) وتارة يمدح أهله كقوله تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)(آل عمران/١٧)، وتارة يذكر الله عز وجل أنه يغفر لمن استغفره كقوله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً) (النساء/١١٠) .

وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء، إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لاسيما إذا خرج من قلب منكسر بالذنوب، أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات، وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة، كما في حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: " سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت "(رواه البخاري) .

وقوله: " أبوء لك بنعمتك علي " أي أعترف لك، و " أبوء بذنبي " أي أعترف وأقر بذنبي .

وفي حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: قل: " اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم "(رواه مسلم) .

ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: " أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه " .

وقد ورد عن النبي ـ ﷺ ـ أن من قاله: " غفر له وإن كان فر من الزحف " .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن كنا لنعد لرسول الله ـ ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: " رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور "(رواه الترمذي وأبو داود والحاكم) .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ أنه قال: " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة "(رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة) .

وعن النبي ـ ﷺ قال: " إنه لَيُغَانُ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة "(رواه البخاري ومسلم) .

وقد ورد في حديث أنس أهم الأسباب التي يغفر الله عز وجل بها الذنوب، فقال ـ ﷺ قال الله تعالى: " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة "(رواه الترمذي) .

وقد تضمن هذا الحديث ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة:

أحدها: الدعاء مع الرجاء: فإن الدعاء مأمور به موعود عليه بالإجابة، كما قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)(غافر/٦٠)، فالدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه، وقد تتخلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه، ومن أعظم شرائطه حضور القلب ورجاء الإجابة من الله تعالى، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يرج مغفرة من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره فقوله: " إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي " يعني على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاظمني ذلك ولا أستكثره .

وفي الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ قال: " إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء "(رواه مسلم) .

فذنوب العباد وإن عظمت فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها، كما قال الإمام الشافعي عند موته:

وَلمّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَت مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوكَ سُلَّمًا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعظَمَ

الثاني: الاستغفار: فلو عظمت الذنوب وبلغت الكثرة عنان السماء ـ وهو السحاب، وقيل: ما انتهى إليه البصر منها ـ ثم استغفر العبد ربه عز وجل، فإن الله يغفرها له .

روي عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني عود لسانك اللهم اغفر لي فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متي تنزل المغفرة .

الثالث: التوحيد: وهو السبب الأعظم ومن فقده حُرِمَ المغفرة، ومن أتى به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)(النساء/١٦٦)، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معنى قوله: " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك

بقرابها مغفرة" يُعْفَى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقى الموحد الذي لم يشرك بالله ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضةٌ، والدافع لها قوي، ومعنى " قُراب الأرض " ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذب بعدله وحكمته، وهو المحمود على كل حال .

قال بعضهم: الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقام بشروطه كلها بقلبه والسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيمًا وإجلالاً ومهابة وخشية ورجاء وتوكلاً، وحينئذٍ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كما أن الله عز وجل لا يقبل طاعات المشركين فنرجو أن يغفر الله عز وجل ذنوب الموحدين أو معناه .

الآثار في فضل الاستغفار:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا .

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه .

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار .

وسمعوا أعرابيًا وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لَلُؤمٌ، وإن تركي استغفارَكَ مع علمي بسعة عفوك لعجزٌ، فكم تتحبب إليَّ بالنعم مع غناك عني، وكم أتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وَفّى، وإذا أوعد عفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين .

لكن قوله: " إذا أوعد عفا " مخالفٌ لعقيدة السلف ـ رضي الله عنهم ـ فوعد الله عز وجل ووعيده حق، كما قال تعالى: (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيّ)(ق/٢٩) .

فهو سبحانه إن شاء عفا وإن شاء عاقب، نسأل الله المغفرة والعفو والعافية.

فلا شك أن الاستغفار له أثر عظيم في صلاح العبد وسعادته واستقامة أحواله وتخلصه من الآثام والشرور والفتن. ولذلك كان رسول الله ﷺ يواظب على الاستغفار مائة مرة في اليوم والليلة كما ثبت في الصحيحين قال النبي. ﷺ: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة).

إن الاستغفار يقوي صلة العبد بربه ويجدد العهد مع الله ويحقق عبوديته لأن حقيقته يقول العبد أنا عبدك يا ربي قد أذنبت وقصرت في حقك فاغفر لي ذنبي واسترني وتجاوز عني.

إن الاستغفار يتضمن اعتراف العبد بفقره لمولاه وحاجته لرحمته وإحسانه ولذلك جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول ﷺ يقول: (إن عبدا أصاب ذنبا فقال يارب إني أذنبت ذنبا فاغفره لي فقال ربه علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر وربما قال ثم أذنب ذنبا آخر فقال يارب إني أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر وربما قال ثم أذنب ذنبا آخر فقال يارب إني أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فقال غفرت لعبدي فليعمل ما يشاء).

إن الاستغفار يمحو الذنوب ويسترها ويطهر العبد من الخطايا والرزايا ولذلك جاء في الحديث: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم). رواه مسلم.

إن الاستغفار يحقق للعبد الرضا والطمأنينة وراحة البال لأن القرب من الله يورث العبد ذلك. قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً).

إن الاستغفار يطرد الهم ويزيل الغم ويجعل روح المؤمن في سعادة وسرور وحبور ولذلك روي في الحديث: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب). رواه أبو داود.

إن الاستغفار طريق لمحبة الله والفوز بمرضاته لأن الله يحب التوابين كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ). وإذا استشعر المؤمن هذا المقام أكسبه ذلك سعادة وفرحة وبهجة لا يحيط بها وصف ولا تفسرها كلمات.

إن الاستغفار يهذب النفس ويزكي الروح ويكسبها خشوع وسكينة وهدوء لأنه يطهر القلب من الأدران ويطرد الشيطان ويصقل الروح ويطيب الخاطر ومن واظب عليه عاش لحظات سعيدة من عمره.

إن الاستغفار يورث القلب انكسارا والجوارح تواضعا ويخلص العبد من الكبر والخيلاء لأن المستغفر يشعر بحسرة الذنب قد كسرت قلبه المعصية ويطلب الستر مطأطئ الجناح وهذا المقام ينافي الكبر ويقتضي الإخبات.

إن كثرة الاستغفار يحفظ اللسان من الآثام والعين من الخيانة والجوارح من الذنوب.

إن الاستغفار أعظم دواء وشفاء لمن أسرف على نفسه بالسيئات وصار أسيرا للشهوات وأراد أن يحرر نفسه ويعتقها من عبودية الشيطان. قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب وأما دوائكم فالاستغفار).

إن الاستغفار يحمل العبد على رحمة الخلق ولين الجانب معهم والتجاوز عن زلاتهم لأن المستغفر يطلب التجاوز والرحمة من المولى فلا يليق بحال المستغفر أن يؤاخذ غيره ممن أخطأ في حقه وينزل به العقوبة ولا يسامح. قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). رواه الترمذي. ومن طمع في رحمة الله ومغفرته فليرحم الخلق لتتنزل عليه الرحمات والنفحات.

إن كثرة الاستغفار ولزومه يحل الأزمات ويرفع البلاء وينفس الكرب ويحقق الفرج بعد الشدة.

إن الاستغفار يجلب الرزق ويبارك فيه ويوسع على العبد في دنياه وله أثر عظيم في تيسير الأمور. قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً).

إن الاستغفار سبب عظيم بإذن الله لرزق العبد نعمة الولد. قال تعالى: (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً). ومن كان عقيما أو عنده مشكلة في الإنجاب فليكثر من الاستغفار.

إن الاستغفار يزيد المؤمن قوة في بدنه وماله وولده وأهله ويقيه من الآفات والعلل. قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ).

إن الاستغفار يمنع من نزول العقوبة على العبد في الدنيا ويدرأ عنه العذاب في الآخرة. قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).

ويستحب الاستغفار للمؤمن في كل ساعة من ليل ونهار ولكنه يتأكد في مواطن:

١- في السحر. قال تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ).

٢- عند الفراغ من صلاة الفريضة كما ثبت في السنة. والفراغ من الحج.

٣- عند الوقوع في الذنب. قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً).

٤- عند حصول الغفلة والتعرض للشبهات والشهوات.

والاستغفار يجزئ بأي صيغة تتضمن طلب المغفرة والستر من الرحمن كقولك: أستغفر الله. أو أستغفر الله وأتوب إليه. وقد ورد في النصوص بصيغ متنوعة ومن أفضل الصيغ ما ورد في صحيح البخاري عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: (سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت). وكذلك ما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم).

فينبغي للمؤمن أن يغتنم فراغه بالاستغفار ويعود لسانه على المواظبة عليه ويستكثر منه. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا). وقال الحسن: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة).

تزكية النفس تولد الأمانة العامة

التزكية هي الممارسة الأساس من بين جميع مهام الاستخلاف الإيماني، لأن بناء النفوس القوية الأمينة تظل شرطا أوليا لكل المهام الاستخلافية التي يزاولها الإنسان في الواقع. . إن التزكية هي الغاية والوسيلة معا لكل تربية جديرة بالانتماء للإسلام، سواء كانت تربية فردية أو جماعية، أو كانت تربية مجتمعية عامة أو تربية مدرسية خاصة.

الأمانة في الشرع لها معنيان ؛ معنى عام وآخر خاص .

فالمعنى العام: هو أنها تتناول جميع أوامر الشرع ونواهيه .

ومما يدلّ على ذلك ؛ قول الله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب/٧٢.

ساق ابن كثير رحمه الله تعالى مجموعة من أقوال علماء السلف في تفسير لفظ " الأمانة "، ثمّ قال:

" وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها: التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان " انتهى من "تفسير ابن كثير " (٦ / ٤٨٩) .

وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ؛ حيث قال:

" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عُنِي بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس . وذلك أن الله لم يَخُصّ بقوله (عَرَضْنَا الأمَانَةَ) بعض معاني الأمانات لما وصفنا " انتهى من " تفسير الطبري " (١٩ / ٢٠٤ – ٢٠٥).

وقال القرطبي رحمه الله تعالى:

" والأمانة تعمّ جميع وظائف الدّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور " .

انتهى من " تفسير القرطبي " (١٧ / ٢٤٤) .

وقال الله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) المؤمنون/٨ .

قال الشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى:

" والأمانة تشمل: كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس ... " .

انتهى من " أضواء البيان " (٥ / ٨٤٦) .

والمعنى الخاص للأمانة:

تواترت نصوص الشرع على الأمر بحفظه، وعدم تضييعه، أو خيانته ؛ واشتهر في كتب أهل العلم والفقه، وعلى ألسنة الناس، ولعله هو مراد السائل هنا بسؤاله عن الأمانة .

والمراد بها على ذلك: كل ما يجب على الإنسان حفظه وأداؤه من حقوق الآخرين .

ولها ثلاث صور مشهورة:

الصورة الأولى: الحقوق المالية الثابتة بعقود، كالودائع، والقروض، والإجارات ونحوها، أو بدون عقود كاللقطة وما يجده الإنسان من أموال الناس الضائعة منهم .

جاء في " الموسوعة الفقهية الكويتية " (٦ / ٢٣٦):

" وبالتتبع تبين أن الأمانة قد استعملها الفقهاء بمعنيين:

أحدهما: بمعنى الشيء الذي يوجد عند الأمين، وذلك يكون في:

أ – العقد الذي تكون الأمانة فيه هي المقصد الأصلي، وهو الوديعة، وهي العين التي توضع عند شخص ليحفظها، فهي أخص من الأمانة، فكل وديعة أمانة ولا عكس.

ب – العقد الذي تكون الأمانة فيه ضمنا، وليست أصلا، بل تبعا، كالإجارة والعارية والمضاربة والوكالة والشركة والرهن .

ج – ما كانت بدون عقد، كاللقطة، وكما إذا ألقت الريح في دار أحد مال جاره، وذلك ما يسمى بالأمانات الشرعية " انتهى .

الصورة الثانية: حفظ أسرار الناس .

عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) رواه مسلم (١٤٣٧).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ الْتَفَتَ: فَهِيَ أَمَانَةٌ) رواه أبوداود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩) وقال: هذا حديث حسن .

وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة" (٤٨٦٨) .

الصورة الثالثة: المسؤوليات والمناصب العامة والخاصة: فهي أمانة يجب القيام فيها بالحق والعدل، فمنصب الحكم أمانة، ومنصب القضاء أمانة، ومنصب المدير في أي مؤسسة أمانة، ومسؤولية الأسرة أمانة، وهكذا كل المسؤوليات والمناصب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: (إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) رواه البخاري (٦٤٩٦) .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ! أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟، قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) " رواه مسلم (١٨٢٥) .

ثانيا:

الواجب في الأمانات العامة والخاصة أن تحفظ وتؤدى على الوجه المطلوب شرعا، ويحرم إضاعتها وخيانتها .

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) الأنفال/٢٧ .

وقال الله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) النساء/٥٨ .

وخيانة الأمانة علامة من علامات النفاق .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) رواه البخاري (٣٤)، مسلم (٥٨) .

ثالثا:

خيانة الأمانة هي ذنب من الذنوب، وكبيرة من الكبائر . ورغم عظم هذا الذنب إلّا أنّ باب التوبة مفتوح .

قال الله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) الزمر/٥٣ .

وقال الله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) الشورى/ ٢٥ .

وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيهِ) رواه مسلم (٢٧٠٣) .

والتوبة الصادقة النصوح: هي المسارعة إلى ترك الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العودة إليه .

ثمّ ينظر المذنب المضيع للأمانة ؛ فإذا كانت هذه الأمانة التي أضاعها تتعلق بحقوق الله، فيجب . زيادة على التوبة والاستغفار .: أن ينظر إذا ما كان هناك تكليف شرعي لجبر هذه الإضاعة فيجب القيام به، كالقضاء أو الكفارة .

فمثلا المضيع لأمانة الصوم بأن أفطر متعمدا في رمضان، عليه، مع توبته، قضاء الأيام التي أفطرها، وإذا كان إفطاره حصل بجماع: فعليه أن يؤدي الكفارة، وهكذا باقي أمور الشرع.

أمّا إذا كانت الأمانة التي خانها تتعلق بحقوق الناس، فعليه، مع ما سبق بيانه من أمر توبته: أن يؤدي الحق إلى صاحبه، أو يطلب منه العفو والمسامحة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) رواه البخاري (٢٤٤٩) .

قال النووي رحمه الله تعالى:

" قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية .

والثاني: أن يندم على فعلها .

والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه: رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة: استحله منها " انتهى من " رياض الصالحين " (ص ١٤)

اثر الكسب الحلال والطعام الحلال في تزكية النفس

أحلّ لنا الطيّبات وحرّم علينا الخبائث، وجعل ذلك من صفات نبيه ﷺ المذكورة في الكتب السابقة، قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧].

الأصل في الأشياء الإباحة

الأصل في الأشياء الإباحة، أما المحرمات إنما هي أشياء مستثناة، قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} [المائدة: ٢].

فالحلال الطيب هو الأصل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]، وقال: {يَسْأَلونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [المائدة: ٤]، وقال أيضًا: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ} [المائدة: ٥]، وطعام الذين أوتوا الكتاب هي ذبائحهم باتفاق المفسرين إذا ذبحوا بمُحدد في مَنحرٍ جاز لنا أن نأكل منها.

لا تحرموا الطيبات

قد يترك الإنسان ما يشتبه ويختلط عليه تورعًا، والورع من الدين، ولكن لا يسعه تحريم الطيبات بمقتضى ذلك على عموم الخلق. قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [المائدة: ٨٧]. وقال: {وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [النحل: ١١٦].

إن تحريم الطيبات كاللحم والسمك والخضروات والفاكهة لا يقل في خطورته عن تحليل الحرام كالخمر والزنى والقمار.. بل قد يزيد، إذ تحريم الحلال قرين الشرك، ففي الحديث القدسي: "إني خلقت عبادي حنفاء وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا".

فإذا ثبت حصول المضرة، فالضرر يُزال، والضرورة تُقدر بقدرها، ولا يجوز المغالاة في تحريم الطيبات بتحاليل معملية أو فحوصات مجهرية، فالنجاسة تُعرف بلون أو طعم أو رائحة.

شريعة ترفع الحرج وتبيح الطيبات

إنّ من سمات هذه الشريعة المطهرة رفع الحرج والأصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، ومن صور ذلك إباحة الطيبات.

وقد وردت النصوص والآثار تدل على ذلك، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا، وكسبه من طيّب" [رواه ابن ماجه]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيّب، إلا أخذها الله بيمينه، فيُربيها كما يُربي أحدكم فلوّه أو قَلوصَه، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم" [رواه البخاري ومسلم]. وعن المقدام بن معد يكرب الزُّبيدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "ما كسب الرجل كسبًا أطيب من عمل يده. وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة". [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيُّها الناس، إنّ الله طيبٌ لا يقبل إلاّ طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمُدُّ يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟". [رواه مسلم].

أفضل الكسب ما كان من عمل اليد

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إنّ أطيب ما أكل الرّجل مِن كسبِهِ، وإنّ ولده من كسبه". [رواه أبوداود وابن ماجه]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: "خير الكسب العامل إذا نصح". [رواه أحمد]. وعن الزُّبير بن العوام رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: "لأن يأخذ أحدكم أحبلاً فيأخذ حزمة من حطبٍ فيبيع فيكُفَّ الله بها وجهه خيرٌ من أن يسأل الناس أُعطي أم مُنع". [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: "لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدق به ويستغني به من الناس، خيرٌ له من أن يسأل رجلاً، أعطاه أو منعه ذلك، فإنّ اليد العُليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول" [رواه البخاري ومسلم].

وعن المقدام رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: "ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" [رواه البخاري]. وقال أبو عبد الله الباجي الزاهد: "خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل ومعرفة الحق، وإخلاصُ العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال". وقال ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – بعد قوله ﷺ: "إنّ الله – تعالى – طيّبٌ لا يقبلُ إلاّ طيبًا، وإن الله – تعالى – أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.." قال: المراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال وبالعمل الصالح.

قال ابن كثير عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً} [البقرة: ١٦٨]، أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيبًا، أي مُستطابًا في نفسه غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول".

وقال عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا} [البقرة: ١٧٢]، "والأكل من الحلال سببٌ لتقبُّل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة".

وقال الحسن البصري عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [المؤمنون: ٥١]، قال: "أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه". وقال سعيد بن جُبير والضحاك {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ} يعني الحلال. وقال عمرو بن شُرحبيل: "كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه".

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال يومًا: "إني أكلت حُمُّصًا وعدسًا فنفخني" فقال له بعض القوم: يا أمير المؤمنين إن الله يقول في كتابه: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} فقال عمر: "هيهات ذهَبْتَ به إلى غير مذهبه، إنما يُريد به طيب الكسب ولا يُريد به طيب الطعام".

فلماذا نتخطى دائرة الحلال والمباح الواسعة إلى دائرة الحرام الضيقة، والتي من شأنها أن تمحق البركات وتُدمر البلاد والعباد، إن تعاطي الحلال وأكل الطيبات طريق موصل إلى محبة الله وجنته وسبب لإجابة الدعاء وحصول البركة في العمر والنماء في المال كما أنه عنوان السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة، يورث حلاوة المقال والفعال والبركة في الذرية وصلاح

افضل كتاب في تزكية النفس

فكتب الرقائق والسلوك عموماً محورها وغايتها هو تزكية النفس، ومن أبرز تلك الكتب كتب العلامة ابن قيم الجوزية مثل: لداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان- طريق الهجرتين- مدارج السالكين. مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي- تلبيس إبليس لابن الجوزي. ومما يعين على تزكية النفس مطالعة كتب الترغيب والترهيب، ككتاب الترغيب والترهيب للمنذري، أو صحيح الترغيب والترهيب للألباني، وكذلك الكتب المتعلقة بأحوال الموتى والدار الآخرة، ككتاب حادي الأرواح لابن القيم، وكتاب التخويف من النار لابن رجب، وكتاب التذكرة للقرطبي، فإن هذه من أنفع العلوم لصلاح الباطن وحصول الاستقامة.

والله أعلم.

بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء، ولا يقصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبل التوصل إلى الجمع بينهما والله الموفق للخيرات الهادي لأعلى الدرجات.

أ – الرجاء

هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده.

وإذا كانت الأسباب غير موجودة فاسم الغرور والحمق عليه أصدق، وإذا كان الأمر مقطوعاً فلا يسمى رجاء إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس، ولن يمكن أن يقال: أرجو نزول المطر.

وقد علم علماء القلوب: أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض والإيمان كالبذور فيها، والطاعة جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة هو الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو بذر إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب، وسوء أخلاقه، وكما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء

البخل والشح

إن البخل دليل على قلة العقل وسوء التدبير، وهو أصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلى خصال ذميمة، ولا يجتمع مع الإيمان، بل من شأنه أن يهلك الإنسان ويدمر الأخلاق كما أنه دليل على سوء الظن بالله عز وجل، يُؤخر صاحبه، ويبعده عن صفات الأنبياء والصالحين.

فالبخيل محروم في الدنيا مؤاخذ في الآخرة، وهو مكروه من الله عز وجل مبغوض من الناس، ومن هنا قال القائل: جود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده.

وقال آخر: البخل هو محو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية.

وقد تتسع دائرة البخل حتى تشمل امتناع المرء عن أداء ما أوجب الله تعالى عليه فترى البعض يبخل بنفسه وماله ووقته، وقد يمتنع عن تأدية حقوق الله أو النفس أو الخلق، قال الجاحظ: البخل خُلقٌ مكروه من جميع الناس إلاّ أنه من النساء أقل كراهية، بل قد يستحب من النساء البخل (بمال أزواجهن إلاّ أن يؤذن بالجود) فأما سائر الناس فإن البخل يشينهم وخاصة الملوك والعظماء، فإن البخل أبغض منهم أكثر مما هو أبغض من الرعية والعوام ويقدح في ملكهم؛ لأنه يقطع الأطماع منهم، ويبغضهم إلى رعيتهم".

والشح أشد في الذم من البخل ويجتمع فيه البخل مع الحرص، وقد يبخل الإنسان بأشياء نفسه، وأشد منه دعوة الآخرين للبخل، قال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} [النساء: ٣٧].

وقد يصل البخل بصاحبه إلى أن يبخل على نفسه، بحيث يمرض فلا يتداوى، وفي المقابل فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

قال تعالى: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: ١٨٠].

وقال: {الذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [النساء: ٣٧].

وكان من دعائه ﷺ: "اللهم إنّي أعوذُ بك من الهَمّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكسَل، والبُخْلِ والجبنِ، وضلع الدّين، وغَلَبَة الرّجَالِ..." الحديث [رواه البخاري ومسلم]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "الظلم ظلُمات يومَ القيامة، وإيّاكم والفُحش، فإنَّ الله لا يُحبّ الفحش ولا التّفحّش، وإياكم والشُّحّ، فإنّ الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبَخِلوا، وأمرهم بالفجور ففجَرُوا" [رواه أحمد وأبو داود

وعن عبد الله بن الشّخير رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيّ ﷺ وهو يقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكاثُرُ} قال: "يقول ابن آدم: مالي، مالي. قال: وهل لك يا ابنَ آدم من مالكَ إلاّ ما أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟" [رواه مسلم].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثٌ مُنجيات: خشية الله تعالى في السّرِّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى. وثلاث مُهْلِكاتٌ: هَوَىً مُتَّبع، وشُحٌ مُطاع، وإعْجابُ المرء بنفسه" [رواه الطبراني والبزار وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يُصبح العباد فيه إلاّ ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفِقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تَلفًا" [رواه البخاري ومسلم].

فإياك والبخل، فقد علمت ما جاء فيه من الذم، ودرِّبْ نفسك على الجود والكرم وتعامل مع الرب الكريم الذي لا تضيع عنده مثاقيل الذر، فعندك من النباهة والفطنة ما يخلصك من المعرة في الدنيا والآخرة.

علاج البخل

لعلاج البخل مثل الأمراض الأخرى، يجب على المرء أولاً معرفة أضرار البخل وآثار وفوائد الوجود والانفاق، ثم البحث عن علاجه؛

قال الله تعالى " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " وقال تعالى " ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة " وقال تعالى " الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله " وقال ﷺ " إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال ﷺ " إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم وقال ﷺ "وقال ﷺ " ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وقال ﷺ " إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال وقال ﷺ " مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا قلصت ولزمت كل حلقه مكانه حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع وقال ﷺ " خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق وقال ﷺ " اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى ارذل العمر وقال ﷺ " إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة

أي أن على البخيل أن يفكر كثيراً في آثار ونتائج البخل – التي وردت في النصوص الدينية–، وكذلك فوائد الكرم والجود التي وردت في التعاليم الدينية ويتأمل فيها. ويكثر من التفكير في الآيات والأحاديث التي جاء الكلام فيها عن خساسة البخلاء وذلّتهم والتي تبشر بالمكافأة على الوجود والكرم.

يجب على البخيل أن يعتقد أن أمامه عالم آخر غير هذا العالم، والذي سيسافر ويرحل إليه عاجلاً أم آجلاً، وانه يحتاج إلى ارسال بعض ما لديه بالفعل في هذا العالم إلى عالم آخر وادخاره هناك حتى يتمكن من استخدم ذلك في يوم عجزه وفقره.

فعندما عرف البخيل هذه الامور اعتقد بها، فعليه أن يكره نفسه على البذل، ويخلي قلبه من حب الثروة والمال، ويبذل وينفق باستمرار؛ ويقوم بالإحسان إلى الفقراء حتى يميل طبعه البشري إلى صفة البذل والاحسان. ومن أراد أن يتخلص من هذه الرذيلة الاخلاقية، فعليه ان لا يتعلل في عمله عندما يريد بذل شيء من ماله، لإن الشيطان يغريه ويخوفه من الفقر وقلة المال.

إذا تجذر مرض البخل في نفس الإنسان فعليه أن يقنع نفسه بأن بذله وانفاقه سيجعله معروفاً بين الناس بالكرم، وعليه أن يتذكر المعروفين بالجود والكرم، حتى يتمكن بذلك من اقناع نفسه وبسط يده للبذل والانفاق.

بالطبع ان البذل والعطاء بهذه النية وبهذا الشكل رغم أنه ليس حقيقة السخاء والكرم ويعتبر صفة رذيلة عند اولياء الله ولكن لا اشكال ولا ضرر في ذلك اذا كان بدافع التشجيع والترغيب حتى ينتزع المرؤ حب المال من قلبه، وبعد ذلك يقوم بتصحيح نيته وقصده.

جدير بالذكر أن أهم طريق لعلاج هذه الصفة هو قطع جذور هذا المرض وهو حب المال الذى يدعو الى حب الدنيا.

السخاء والكرم

السخاء أساس كثير من الفضائل، أساس الألفة والمحبة والتعاون. والسخاء والجود والكرم ألفاظ جميلة، معانيها نبيلة، وحديثها عذب شيق، ينعش الأرواح ويشرح الصدور، إنه يخلد الذكر وهي تبقى لصاحبها لسان صدق. هؤلاء الأسخياء إن عاشوا فهم في أعين الناس عظماء وإن ماتوا فهم في أعين الناس أحياء.

وحد السخاء هو بذل المال مما أعطاك الله في الأمور المحمودة دون مقابل أو عوض ودونما إسراف ولا تفريط لا سيما إذا كان لسد حاجة أو لإغاثة ملهوف أو حفظ نفس من الوقوع في المذلة والهوان.

ولقد حث دستور الحياة على الإنفاق ورغب في البذل والسخاء ففي الكتاب الكريم آيات كثيرة تدعو إلى ذلك وترغب فيه. يقول تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَٰفِرُونَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤). ويقول: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾(إبراهيم:٣١). ويبين أن المال أمانة وحق في يد الإنسان وهو مستخلف فيه فيقول: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:٧)

ولقد جعل الإنفاق والبذل من خصال البر، فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَٰئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة:١٧٧

ولقد جعل الإنفاق والبذل من خصال البر، فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَٰئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة:١٧٧

ألا ما أعظم فضل السخاء إنه الخلق الذي يجب أن يتزين به كل إنسان وأن يتحلّى به كل مسلم أحبه الله واتصف به فهو جواد كريم وهو أكرم الكرماء يرزق من يشاء بغير حساب، ويعطى ولا راد لعطائه ولا تنفد خزائنه، وجمل بالسخاء أنبياءه ورسله؛ فقد كان محمد ﷺ أجود الناس

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس وان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

كذلك كان أصحابه (رضوان الله عليهم) وفي غزوة العسرة ظهر السخاء في أرفع صوره، جاء أبوبكر بجميع ماله فقال له رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لأولادك يا أبا بكر»قال بمنطق الإيمان: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بنصف ماله وتصدق عثمان بالكثير والكثير حتى لقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني رضيت عن عثمان فارض عنه».

وكذلك كان سائر أصحابه وكذلك السابقون كانوا كرماء أسخياء لا يريدون بسخائهم إلا وجه الله (عز وجل)؛ ولذلك سجل الله ذكرهم في القرآن الكريم ووعدهم في الدنيا بالنجاح والفلاح وأمنهم على أنفسهم من فزع يوم القيامة ولقاهم بعد ذلك كله نضرةً وسرورًا ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَـٰهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ [الإنسان:٩-١١].

ولو أن الناس يعلمون ما في الكرم من مآثر وحسنات لأسرعوا وجادوا بأنفسهم وأرواحهم في سبيل الحصول على هذه المفاخر. إن السخي يحبه الناس في حياته وبعد موته ويجلونه في حضرته وغيبته ويقلدونه في قوله، وفعله كلمته مسموعة وأمره مطاع ورأيه سديد وحكمه نافذ.

إن السخاء يقلل الأعداء ويكثر الأحباء ويغفر الزلات ويستر العيوب.

يغطى بالسماحة كل عيب***وكم عيب يغطيه السخاء

إن السخاء عمدة مكارم الأخلاق يفتخر به الأبناء والأحفاد وتتناقله الأخبار الركبان وتدونه الصحف والكتب ويسجله التاريخ بمداد الفخر على صفحات الأيام:

وكم مات قوم وما ماتت مآثرهم***وعاش قوم وهم في الناس أموات

إنه حصن الأمان ودليل المروءة، وباعثه إنما هو جود النفس وسخاؤها وسموها وكرمها يقول الشافعي رضي الله عنه ثقة فيما عند الله:

توكلت في رزقي على الله خالقي*** وأيقنت أن الله لا شك رازقي

وما كان من رزقي فليس يفوتني ***وإن كان في قاع البحار الوامق

سيأتي به الله العظيم بفضله ***ولو لم يكن مني اللسان بناطق

ففي أي شيء تذهب النفس حسرةً***وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

شرف الله السخاء فجعله صفة من صفات المتقين وقرنه بالصلاة ثم قرنه بالإيمان بالغيب: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة:٣) ووعد أولئك المتقين المقيمين للصلاة

المؤمنين بالغيب بالفلاح، وقصر الفلاح عليهم دونما سواهم، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة:٥) والفلاح اسم جامع لسعادة الدنيا والآخرة.

يظن بعض الناس أن السخاء والبذل يضر بثروتهم، وينقص مالهم ويجلب لهم الفقر الذي يزعجهم، وينغص عليهم سعادتهم في هذه الحياة. وهذا الظن الشيء إنما هو من وسوسة الشيطان يكره البذل والإنفاق، ولذلك فلا شيء أغيظ للشيطان وأقتل لكيده وأبطل لوسواسه من الإنفاق في وجوه الخير، لذلك يثنيها عن الجود والإعطاء ويحبب إليها الشح والإمساك، وصدق الله العظيم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨) إن ما يبذله الإنسان وما تسخو به نفسه من ألوان الصدقات كالزكاة والهبة والتبرع والصلات وسائر ما ينفقه في وجوه الخير، كل ذلك يعود على صاحبه بعظيم النفع وجليل الآثار في دنياه وفي آخرته في حياته وبعد مماته. ومن أعظم هذه الآثار:

أولاً: أن السخاء سبب النماء، وقد اعتبره الله قرضًا حسنًا لا يرده لصاحبه مثلاً ولا مثلين وإنما يرده أضعافًا مضاعفةً ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥).

لقد وعد الكريم ووعده حق وصدق، أن يعوض المنفقين عما أنفقوا بأن يغمرهم في هذه الحياة بعطائه، الذي لا ينفد وبخيراته التي لا تحد. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ:٣٩)، ويقول رب العزة في الحديث القدسي: «يا عبدي أنفق أنفق عليك، يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؛ فإنه لم يغض ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع».

وإن في قصص التاريخ لعبرة وعظة. فقد كان معن بن زائدة من أجود وأسخى أمراء المسلمين، وحدث أن جاء إلى مجلسه رجل من البوادي يحمل جرة، فسخر بعض الناس منه، وقالوا لمعن: سل هذا الرجل كيف ولم جاء بهذه الجرة إلى مجلسك هذا؟ فسأله معن فقال الرجل:

لما رأيت الناس شدوا رحالهم***إلى بحرك الطامي أتيت بجرتي

فأعجب لفصاحته معن، وقال لعماله: املؤوها له ذهبًا. فخرج الرجل بها، وما أسرع ما التف الفقراء حوله، فجعل ينفق منها يمينًا وشمالاً حتى نفدت عن آخرها، ورآه بعض من كان في مجلس معن، فأوعزوا إلى معن وقالوا له: لو كان هذا يعرف قيمة ما أخذ ما أنفقه كله فقال: عليَّ به، فجاءه الرجل وهو يقول هذا البيت:

فأعجب به أكثر، وقال لعماله املؤوها له ذهبًا عشر مرات. فقال الرجل. صدق الله العظيم: ﴿مَنْ جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠).

هذا ما أعده الله من خيراته للمتصدقين في الدنيا. فأما الآخرة فإن الأجر عظيم، والثواب جزيل، والله عنده حسن الثواب. فلقد وعد المتصدقين والمتصدقات بالأجر العظيم في الآخرة، فضلاً عن مضاعفة الحسنات، وذلك في غير آية من كتاب الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١١) ﴿إِن الْمُصَّدِّقِيْنَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١٨).

ومن آثار البذل والجود ثانيا: أنه يحصن المال ولا يتلفه، وإنما يحفظه ويحرسه. يقول – صلوات الله وسلامه عليه –: «حصنوا أموالكم بالزكاة»، ويقول في حديث آخر: «ما نقص مال من صدقة».

ثالثًا: ومن هذه الآثار الطيبة الكريمة أنه دواء من أدوية المرضى فليس ذلك بعجيب. فقد قال من لا ينطق عن الهوى: «داووا مرضاكم بالصدقة».

رابعًا: أن الصدقة تقي صاحبها من كثير من البلايا والمصائب يقول ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

خامسًا: ومن هذه الآثار الجليلة: التغاضي عن زلات وهفوات السخي. فلقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن عباس عنه: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر».

سادسًا: أن البذل الواقع عن إخلاص ورحمة يحط الخطايا ويغفر الذنوب ويكفر السيئات يقول تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١) وقال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧) وفيما يرويه ابن حبان عظة وعبرة فعن أبي ذر –رضي الله عنه– عن رسول الله ﷺ قال: «تعبد عابد من بني إسرائيل، فعبد الله في صومعته ستين عامًا، فأمطرت الأرض فأخضرت، فأشرف الراهب من صومعته، فقال: لو نزلت لذكرت الله وازددت خيرًا، فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها، ثم أغمى عليها، فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات، فوزنت عبادة الستين سنة مقابل الزنية فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له».

سابعًا: إن السخاء ذخيرة الرجل لأولاده بعد موته، به يكرمون وبسببه ينالون جميل العطف، ويدفع عنهم كثيرًا من نوائب الدهر. يروى أن النبي ﷺ بعث عليّا (رضي الله عنه) إلى طيء فهرب عدي بأهله وولده، ولحق بالشام، وترك أخته سفانة فأسرها المسلمون. فلما أُتي بها إلى النبي ﷺ قالت: هلك الوالد وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلى عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه، يفك العاني، ويقيل الجاني ويحفظ الجار، ويحيي الزمار، ويفرج عن المكروب، بإطعام الطعام ويفشي السلام، فلا أتاه طالب حاجة ورده خائبا، أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها الرسول ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين فقال: خلوا عنها؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق».

ثامنًا: أن صدقة السر تطفئ غضب الرب كما جاء ذلك في الحديث الصحيح.

تاسعًا: ممن يظلهم الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

وبعد فيا أيها الأخ الكريم لعل فيما قدمناه إليك ما يغري بالبذل والسماحة، والسخاء والجود، ويجمل بك إن كنت ممن أفاء الله عليه بالخيرات الكثيرة والأرزاق الوفيرة أن تتشبه بالكرام؛ فإن التشبه بهم فلاح في الدنيا، وسعادة وفوز عظيم في الآخرة.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم *** إن التشبه بالكـرام فلاح

السخاء خلق المسلم، والكرم شيمته، ولما كانت الأخلاق الفاضلة مكتسبة بنوع من التربية والمجاهدة ،فإن المسلم يعمل على تنمية الخلق الفاضل في نفسه وفي اهله

(وليست بعد الإيثار درجة في السخاء ،وقد أثنى الله- تعالى- على أصحاب رسول الله- ﷺ- بالإيثار فقال: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (الحشر /٩).

(انظر مختصر منهاج القاصدين (٢٠٥) .

الأحاديث الواردة في (السخاء) منها:

١- حديث حكيم بن حزام- رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله- ﷺ- فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال: (يا حكيم: إن هذا المال خضرة حلوه، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى)

وإن كَثُرَت عُيوبُكَ في البَرايا ***وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطاءُ

تَستَّر بِالسَخاءِ فَكُلُّ عَيبٍ *** يُغَطّيهِ كَما قيلَ السَخاءُ

ينبغي لكل مسلم ومسلمة أن يتخلق بهذا الخلق الفاضل، ألا وهو- خلق السخاء-: لما فيه من الفوائد العظيمة والأثر الطيب في حياة الناس، فإن صاحبه محمود في الدنيا والآخرة، والسخاء دليل الزهد في الدنيا وحب الآخرة، ويكسب صاحبه السيادة في الدنيا والآخرة، وهو طريق من طرق النبيين والسلف الصالح .

الخاتمة نسأل الله حسنها

لقد عشنا في رياض هذا السفر الكريم

تزكية النفس وكيف تكون نفسا مشرقة

وأتينا للخاتمة لنجمل ما كان مفصلا لتعم الفائدة

إن تزكية النفوس من كبرى مقاصد الرسالات الإلهية وبعث الرسل، فقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٧-١٩]، وقال سبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤]، ويقول رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» (رواه أحمد وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي

وتزكية النفس سبيل فلاحها وسلامتِها من عقبى الخيبة، كما أكدّه المولى جل وعلا بأحد عشر قَسَماً: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ١-١٠]. وبتلك التزكية يُذاق طعم الإيمان، يقول رسول الله ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد طَعِم طَعْم الإيمان»، وذكر منها: {وزكّى نفسه} (رواه الطبراني وصححه الألباني).

ودرجات الجنة العلى جزاء من تزكى، يقول الله تعالى: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} [طه: ٧٥-٧٦]، وقد بيّن النبي ﷺ علوَّ ذلك النزل في قوله: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا» (رواه الترمذي وحسنه وصححه

إن زكاة النفس منّة يكرم الله سبحانه بها من سبقت له الحسنى لديه؛ تفضلاً ورحمةً لا استحقاقاً، يقول الله سبحان: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور: ٢١]، وإنّ طلب المكلّف تلك المنّة فرض لازم عليه، وذلك بفعل ما تزكو به نفسه من الأعمال التي شرع الله جل وعلا. وأعظم تلك الأعمال توحيد الله سبحانه؛ فالتوحيد أعظم ما تُزكّى به النفوس، والشرك أقبح ما تَنجس به، يقول الله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦-٧].

-أي: التوحيد- والصلاة من خير ما تزكى به النفس، خاصة المكتوبات، يقول النبي ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؛ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا» (رواه البخاري ومسلم واللفظ له). والصدقة الواجبة والمستحبة من سبل تزكية النفس، يقول الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣]. وغض البصر عن رؤية الحرام مما تزكو به النفس، يقول الله سبحانه: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠

والدعاء سبب قوي لحصول التزكية؛ فقد كان النبي ﷺ يدعو بهذه الدعوات ويعلِّمها أصحابه: «اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا» (رواه مسلم).

ومراقبة الله جل وعلا واستحضار قربه مما تزكّى به النفوس، بل فسّر النبي ﷺ تزكية النفس به؛ فقد سأله رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان» (رواه الطبراني وصححه الألباني).

ومحاسبة النفس سبيل لتزكيتها، يقول ابن القيم: "إِنَّ زَكَاتَهَا وَطَهَارَتَهَا مَوْقُوفٌ عَلَى مُحَاسَبَتِهَا؛ فَلَا تَزْكُو وَلَا تَطْهُرُ وَلَا تَصْلُحُ أَلْبَتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسَبَتِهَا. قَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَاللَّهِ لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ؟ مَا أَرَدْتُ بِمَدْخَلِ كَذَا وَمَخْرَجِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِهَذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا. وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ". فَبِمُحَاسَبَتِهَا يَطَّلِعُ عَلَى عُيُوبِهَا وَنَقَائِصِهَا، فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا". والتوبة إلى الله والإنابة إليه جادة التزكية، يقول الله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١]. يقول شيخ الإسلام: "وَكَذَلِكَ تَرْكُ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ فِي الْبَدَنِ، وَمِثْلُ الدَّغَلِ فِي الزَّرْعِ، فَإِذَا اسْتَفْرَغَ الْبَدَنُ مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ كَاسْتِخْرَاجِ الدَّمِ الزَّائِدِ تَخَلَّصَتْ الْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَاسْتَرَاحَتْ فَيَنْمُو الْبَدَنُ، وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا تَابَ مِنَ الذُّنُوبِ كَانَ اسْتِفْرَاغًا مِنْ تَخْلِيطَاتِهِ حَيْثُ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذُّنُوبِ تَخَلَّصَتْ قُوَّةُ الْقَلْبِ وَإِرَادَاتُهُ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَاسْتَرَاحَ الْقَلْبُ مِنْ تِلْكَ الْحَوَادِثِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ". الخطبة الثانية: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أيها المؤمنون: والتزكية وصف خفيّ استأثر الله سبحانه بعلم حقيقته؛ فلا يُجزم بتزكية مخلوق مهما بلغ في تقاه، يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٩]، قال ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ، فَيَأْتِي الرَّجُلَ لَا يَمْلِكُ لَهُ وَلَا لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَيَقُولُ: وَاللَّهِ! إِنَّكَ كَيْتَ وَكَيْتَ!! وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ وَمَا مَعَهُ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ" ثُمَّ قَرَأَ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} [النساء: ٤٩]، وأَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ

صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ» (رواه البخاري ومسلم). بل كره أهل العلم أن يُسمّي المرء باسمٍ فيه تزكية له كمؤمن وزكي وإيمان وصلاح الدين، قال مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ رحمه الله: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنهما: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: «سَمُّوهَا زَيْنَبَ» (رواه مسلم). وبعد –معشر الإخوة– فهذا بيان لحقيقة تزكية النفس وثمارها ووسائلها وما يمنع فيها؛ فالله الله بتلك التزكية؛ فإنما الفلاح بها. وأجمل حالٍ بلغتَ به *كمالاً وعزاً بإمكانية جهادٌ لنفسك تسمو به * وحرصُك دوماً على تزكية النفس تكن ممن جاهد في الله حق جهاده

اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّهَا أنت خيرُ من زكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نَفْسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد

كتبه د. ابوالحسن علي بن محمد المطري حفظه الله ورعاه ١٧رجب ١٤٤٥

قبيل صلاة الفجر

حامداً مصلياً

الفهـــــرس

المقدمة ٢
التزكية ٣
مقصد التزكية في الدعاء النبوي: ٣
التخلية قبل التحلية: ٤
أليات التزكية: ٥
وقفة مع النفس ٦
أثر التوحيد في تزكية النفوس ٧
أثر العبادات في تهذيب النفوس ١١
أثر القرآن في تزكية نفس المسلم ١٢
أثر القرآن على سلوك المسلم ١٣
أثر سماع القرآن الكريم ١٤
بعض المواقف الدالّة على تأثير القرآن على النفس ١٥
نفع القرآن الكريم ١٥
أثر الإيمان في تزكية النفس ١٦
صفات المؤمنين: ١٧
المنافع العائدة على الإنسان للإيمان بالله ١٩
سعة آفاق النّظر ١٩
الأنفة وعزّة النّفس ١٩
ثالثة هذه الفوائد: إبطال الآمال الكاذبة والعقائد الفاسدة ٢٠
الفائدة الرابعة للإيمان بالله: طمأنينة القلب ٢١
الفائدة الخامسة للإيمان بالله: الشجاعة والجرأة ٢١
وقفة تربوية فقه تزكية النفس ٢٢
حكاية التزكية ٢٣
صفات التربية الإيمانية ٢٣
شوائب ومنغّصات ٢٤
اثر الصلاة في تزكية النفس ٢٥

١-الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه: ٢٥
٢-مناجاة العبد لربه: ٢٦
٣-طمأنينة النفس وراحتها ٢٧
٤-الصلاة حاجز عن المعاصي ٢٩
٥-الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات: ٢٩
٦-الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس ٣٠
٧-الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد: ٣١
أثر الإخلاص في تزكية النفس ٣٢
ومن صور تلك الحظوظ المهلكة: ٣٣
اثر الإحسان في تزكية النفس ٣٦
أثر الزكاة في تزكية النفس ٤٠
الزكاة: ٤٠
ومن الآثار التربوية للزكاة: ٤١
اثر اليقين في تزكية النفس ٤٢
اثر التمسك بالسنة في تزكية النفس ٤٤
مقصد التزكية في الدعاء النبوي: ٤٥
التخلية قبل التحلية: ٤٥
أليات التزكية: ٤٧
اثر الصدقة في تزكية النفس ٤٧
أثر التقوى في تزكية النفس ٤٩
أثر الكلمة الطيبة لا إله إلا الله في تزكية النفس ٥٢
عشر نصائح مهمة لمن أراد تزكية النفس بصدق وإخلاص وتجرد ٥٤
اثر قيام الليل في تزكية النفس ٥٥
قيام الليل سبب تزكية النفس ٥٥
اهمية تزكية النفوس ٥٥
الآثار ٥٦
الأسباب المعينة على قيام الليل ٥٧
١) صدْق النيَّة، والعزم على القيام، ومُجاهَدة النفس في ذلك: ٥٧

٢) التبكير بالنوم، وتعاطي أسباب الاستيقاظ: ٥٧
٣) الوضوء قبل النوم، والمحافظة على أذكار النوم: ٥٨
٤) ذكر الله عند الانتباه: ٥٩
٥) المبادرة إلى ذكر الله – عز وجل – حين الاستيقاظ، والتأسِّي به ﷺ في هيئة النوم: ٦٠
٦) المبادرة إلى التخلُّص من آثار الشيطان بالاستِنثار، وغسل الكفين ثلاثًا: ٦٠
٧) ترك المعاصي والآثام: ٦٠
٨) التقلُّل من الأكل والشرب: ٦١
٩) أن يكون همُّ الآخرة هو الغالب على قلبِه: ٦١
١٠) التفكُّر في أهوال الآخرة، مع قصر الأمل: ٦١
١١) معرفة فضل قيام الليل: ٦٢
١٢) تحقيق محبة الله جل وعلا: ٦٢
١٣) الدعاء والتضرع إلى الله: ٦٣
لماذا تزكية النفس ٦٤
بعض اسرار العبادات ٦٥
١)سر التوحيد في تزكية النفس ٦٥
٢)سر الصلاة في تزكية النفس ٦٥
٣)سر الصدقة في تزكية النفس ٦٥
أثر النوافل في تزكية النفس ٦٦
١– المناجاة بين العبد وربه، والتحقق بمقام العبودية: ٦٦
٢–غذاء القلب وزيادة الإيمان: ٦٨
٣–شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها: ٧٠
ماذا تعنى تزكية النفس؟ ٧٣
مـــا حُكم تزكية النفس؟ ٧٣
السعادة في التزكية: ٧٣
اجمل ما قيل عن تزكية النفس؟ ٧٣
اثر العلم في تزكية النفس ٧٧
المراء والخصام في مسائل العلم يقسي القلب ويحرم من ثمرات العلم: ٧٩
اثر الصيام في تزكية النفس ٨١

أثر الصوم في حفظ النفس........ ٨١
اثر الحج في تزكية النفس ٨٥
أولاً: وسائل التزْكية قبل العبادة: ٨٥
ثانيًا: وسائل التزكية أثناء العبادة: ٨٦
ثالثًا: وسائل الثبَات على التزكية بعد العبادة: ٨٧
من آثار الحج في تزكية النفس: ٨٨
أثر أسماء الله الحسنى في تزكية النفس ٩٢
أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك المؤمن ومواقفه ٩٢
أثر التواضع في تزكية النفس ٩٦
١. تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً ٩٧
٢. تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه ٩٧
٣. التواضع في اللباس والمشية ٩٧
٤. التواضع مع المفضول فيعمل معه ويعينه ٩٨
٥. التواضع في التعامل مع الزوجة وإعانتها ٩٨
٦. التواضع مع الصغار وممازحتهم ٩٨
٧. التواضع مع الخدم والعبيد ٩٩
أثر التواضع على الفرد والمجتمع........ ٩٩
أثر التواضع على الفرد: ٩٩
أثر التواضع على المجتمع: ٩٩
أثر الخوف من الله في تزكية النفس ١٠٠
درجات الخوف........ ١٠١
الدرجة الأولى: خوف العقوبة: ١٠١
الدرجة الثانية: خوف المكر:........ ١٠١
اثر خشية الله في تزكية النفس........ ١٠٣
الآثار الإيمانية المترتبة عند الخشية من الله: ١٠٦
أثر الصبر في تزكية النفس ١٠٧
تعريف الصبر: ١٠٧
فضيلة الصبر والصابرين: ١٠٧

السلف الصالح والصبر* ١٠٩
دوافع تعين على الصبر:* ١١٠
للاستزادة:* ١١٠
أثر الصدق في تزكية النفس ١١١
ومن أهم فضائل الصدق: ١١٢
٢- الصدق يهدى الإنسان إلى البر والخير: ١١٣
٣- الصدق فيه النجاة: ١١٣
٤- الصدق فيه الربح والفوز: ١١٣
مراتب الصدق: ١١٤
آثار الصدق ونتائجه: ١١٤
أثر الإستغفار في تزكية النفس ١١٧
الآثار في فضل الاستغفار: ١١٩
تزكية النفس تولد الأمانة العامة ١٢٣
والمعنى الخاص للأمانة: ١٢٤
اثر الكسب الحلال والطعام الحلال في تزكية النفس ١٢٧
الأصل في الأشياء الإباحة ١٢٧
لا تحرموا الطيبات ١٢٧
شريعة ترفع الحرج وتبيح الطيبات ١٢٨
أفضل الكسب ما كان من عمل اليد ١٢٨
افضل كتاب في تزكية النفس ١٣٠
المؤمن السالك طريق الهداية ١٣١
بين الخوف والرجاء ١٣١
أ – الرجاء ١٣١
البخل والشح ١٣٢
علاج البخل ١٣٤
السخاء والكرم ١٣٦
الأحاديث الواردة في (السخاء) منها: ١٤٠
الخاتمة نسأل الله حسنها ١٤٢

الفهـرس ١٤٥